۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن
كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ
يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ إِذۡ
أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ
أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ
وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ
هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ
وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣ وَإِذۡ
يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ
فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤٤

من مظاهر تبديل كفّار مكّة نعمة الله تعالى كفرًا إنفاقهم أموالهم للصّدّ عن سبيل الله . وإنّ ربّ العزّة لَيَعِد ، ووعده الحقّ ، بأنّ مصير هؤلاء الصّادّين عن سبيل الله تعالى الخسران فى الأولى والآخرة . ومن مظاهر خسران الكافرين أموالهم أن يحصل عليها المؤمنون بواسطة الحرب فتكون غنيمة أو بغير حرب فتكون فيئًا . ولمّا كانت أولى آيات السّورة الكريمة قد نصّت على سؤال المؤمنين المصطفى ﷺ عن الأنفال بعد أن نصر الله تعالى المؤمنين فى بدر ، ولمّا كانت الأنفال مظهرًا من مظاهر إذهاب الله تعالى أموال الكافرين هباءً فقد كان فى هذا القسم تبيينٌ لحكم الله تعالى فى الغنائم . إنّ السّياق يخاطب المؤمنين ويأمرهم بأن يعلموا أنّ ما غنموه فى الحرب من شىءٍ كثر أو قلّ ، غلا أو رخص ، فأنّ لله تعالى خمسه وللرّسول ﷺ ولذى القربى من بنى هاشم وبنى المطّلب ، واليتامى الفقراء الّذين مات آباؤهم وهم صغار والمساكين الّذين حملهم الفقر المدقع على السّكون وقلّة الحركة ، وابن السّبيل ، وهو المسافر المنقطع فى سفر طاعة . ويلاحظ أنّ ابن السّبيل تجىء الإشارة إليه فى صيغة المفرد الموحية بقلّة وجود هذه الفئة من النّاس بالقياس إلى الفئات السّابقة الّتى يصحّ أن يقال إنّ ترتيبها فى هذه الصّورة ينبّه إلى مراعاة مدى قربها نسبًا وصهرًا من المخاطَبين بدليل تبيين حقّ ذى القربى بعد تبيين حقّ الله تعالى وحقّ رسوله ﷺ . كما يلاحظ أنّ الإشارة إلى ذى القربى تجىء فى صيغة المفرد كذلك . وربّما كان فى ذلك إيماءٌ إلى أنّ المراد بذى القربى بنو هاشم وبنو المطّلب على جهة الخصوص . إنّ الامتثال لهذا الحكم فى الغنيمة معناه الإيمان بالله تعالى وبما أنزل جلّ وعلا من ملائكة وقرآنٍ كريم على عبده المصطفى ﷺ يوم الفرقان يوم بدرٍ الّذى فرق الله تعالى فيه بين الحقّ والباطل يوم التقى جمع المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ وجمع الكافرين بقيادة أبى جهلٍ وعتبة بن ربيعة . وبعد الحديث عن زمان وقعة بدرٍ يكون

الحديث عن المكان ، ففي يوم الفرقان كان المؤمنون من الوادى بالجهة القريبة من المدينة المنوّرة وكان المشركون في الجهة البعيدة وكان الرّكب بقيادة أبي سفيان أسفل من الفريقين بمحاذاة ساحل البحر الأحمر متّجهًا إلى مكّة المكرّمة . لقد فاتت العير المؤمنين وبقي النّفيرُ ووَعْدُ الله تعالى للمؤمنين بالنّصر . إنّ المؤمنين لو تواعدوا مع الكافرين على القتال وتبيّن للمؤمنين قلّتهم في العَدد والعُدّة عن المشركين لاختلفوا مع المشركين في الميعاد وتحاشوا القتال ولكنّ الله سبحانه وتعالى سلّمهم من الاختلاف في الميعاد ومن الميعاد أصلاً فقضى الله سبحانه وتعالى أمرًا كان مفعولاً بنصر المؤمنين وهيّأ جلّ وعلا أسبابه ، ليهلك بعد ذلك مَنْ هلك بالكفر عن بيّنة ، ويحيى من حيّ بالإيمان عن بيّنة فإنّ الله سبحانه وتعالى نصر المؤمنين القلّة والأذلّة على الكافرين . إنّ الله سبحانه وتعالى لسميعٌ لأقوال المؤمنين عليمٌ بنيّاتهم وأفعالهم إذ يُرى جلّ وعلا المصطفى ﷺ في منامه المشركين قليلاً لتقوى قلوب المؤمنين على القتال حينما يقصّ ﷺ عليهم رؤياه . إنّ الله سبحانه وتعالى لو أرى حبيبه في منامه المشركين كثيرًا لجبن المؤمنون عن القتال وخافوا وتنازعوا في الأمر واختلفت آراؤهم بشأن القتال ولكنّ الله سبحانه وتعالى سلّم المؤمنين من كلّ ذلك ، فإنّه جلّ وعلا هو العليم بذات الصّدور ودخائل القلوب وخفايا النّفوس . وإنّ الله سبحانه وتعالى لسميعٌ عليمٌ إذ يُرى جلّ وعلا المؤمنين المشركين قليلاً حينما التقى الجمعان ليُقْدِموا على القتال ، وإذ يرى المشركين المؤمنين قليلاً ليستهينوا بهم فلا يأخذوا الأمر مأخذ الجدّ . إنّ ربّ العزّة أرى كلاًّ من الفريقين الفريق الآخر قليلاً ليقضي جلّ وعلا ، الّذى تُرْجع إليه عزّ وجلّ كلّ الأمور ، وليُمْضِي أمرًا كان مفعولاً بنصرٍ مؤزّرٍ للمؤمنين على الكافرين في أولى المعارك الحاسمة بين جيش الإيمان وجيش الطّغيان .

الآيــــة رقم (٤١)

قال تعالى : ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرّسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله على كلّ شيء قدير ﴾ .

من البيّن علاقة الآية الكريمة بأولى آيات السّورة الكريمة . قال عزّ من قائل : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرّسول فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ والآية الكريمة تبيّن الكيفيّة الّتى يتمّ وفقها توزيع الغنيمة . والغنيمة فى اللّغة ما ينال الرّجل أو الجماعة بسعي . والمغنم والغنيمة بمعنًى ، يقال : غَنِم القوم غُنْما[١] ويقول القرطبي"[٢] : « واعلم أنّ الاتّفاق حاصلٌ على أنّ المراد بقوله تعالى : ﴿ غنمتم من شيء ﴾ مالُ الكفّار إذا ظَفِر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر . ولا تقتضى اللّغة هذا التّخصيص ... ولكنّ عُرف الشّرع قيّد اللّفظ بهذا النّوع . وسمّى الشّرع الواصل من الكفّار إلينا من الأموال باسمين : غنيمةً وفيئا . فالشّىء الّذى يناله المسلمون من عدوّهم بالسّعي وإيجاف الخيل والرّكاب يُسَمَّى غنيمة . ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتّى صار عُرْفا . والفيء مأخوذٌ من فاء يفيء إذا رجع . وهو كلّ مالٍ دخل على المسلمين من غير حربٍ ولا إيجاف . كخراج الأرضين وجزية الجماجم وخمس الغنائم » .

والآية الكريمة تخاطب الّذين آمنوا وتأمرهم بأن يعلموا بأنّ ما غنموه من أموال الكفّار على وجه القهر والغلبة فأنّ لله تعالى خمسه وللرّسول ﷺ ولذى القُرْبى وهم بنو هاشم وبنو المطّلب خاصّة[٣] واليتامى ، أي أيتام المسلمين . واختلف العلماء ، هل يختصّ بالأيتام الفقراء أو يعمّ الأغنياء والفقراء ؟ على قولين[٤]

---

(١) تفسير القرطبي ٢٨٤٠ . (٢) تفسير القرطبي ٢٨٤٠ .
(٣) انظر تفسير الطّبري ١٠/٥ وتفسير ابن كثير ٣١٢/٢ وتفسير القرطبى ٢٨٥١ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣١٣/٢ .

والمساكين وهم المحاويج الّذين لا يجدون ما يسدّ خلّتهم ومسكنتهم[١] جمع المسكين وقيل هو الّذى لا شىء له وهو أبلغ من الفقير[٢] وكأنّ المسكين قد حمله الفقر على السّكون وعدم الحركة[٣] وابن السّبيل : وهو المسافر فرأو المريد للسّفر إلى مسافةٍ تقصر فيها الصّلاة وليس له ما ينفقه فى سفره ذلك[٤] على أن يكون سفر طاعة .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة بعد أن بيّنت حكم الخمس وسكتت عن الأربعة الأخماس دلّ ذلك على أنّها ملكٌ للغانمين[٥] .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ الّذى يرضى بهذا الحكم ويعمل به هم أولئك الّذين يؤمنون بالله تعالى ربًّا والّذين يؤمنون بما أنزل الله تعالى على عبده وحبيبه محمّد بن عبد الله ﷺ من الملائكة الكرام والآيات البيّنات[٦] يوم الفرقان يوم بدرٍ الّذى فرق الله سبحانه وتعالى فيه بين الحقّ والباطل[٧] ذلك اليوم الّذى التقى فيه الجمعان ، جمع المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ ، وهو أوّل مشهدٍ شهده رسول الله ﷺ[٨] وجمع المشركين بقيادة عتبة بن ربيعة[٩] وأبى جهل . وكان القتال والنّصر بإذن الله تعالى يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً والمشركون بين الألف والتّسعمائة . فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على السّبعين وأسر منهم مثل ذلك[١٠] وتشير الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة إلى قدرة الله تعالى المطلقة : ﴿ والله على كلّ شىءٍ قدير ﴾ .

ومن البيّن أنّ الخمس يُقَسّم حسب منطوق الآية الكريمة إلى ستّة أقسام هى لله تعالى وللرّسول ﷺ ولبنى هاشم وبنى المطّلب ويتامى المسلمين ومساكينهم والمسافر

---

(١) تفسير ابن كثير ٣١٣/٢ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « سكن » ٢٣٧ .
(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : « سكن » ٢٣٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣١٣/٢ .
(٥) تفسير القرطبى ٢٨٥٢
(٦) الجلالين .
(٧,٨,٩) تفسير ابن كثير ٣١٣/٢
(١٠) انظر تفسير ابن كثير ٣١٣/٢ وتفسير الطّبري ٧/١٠ .

فى سفر طاعة المنقطع ، وهو ابن السّبيل . وهذه الطّريقة هي إحدى الكيفيّات السّتّ الّتى يقسم وفقها الخمس . وممّن ذكرها على جهة التّفصيل القرطبيّ الّذى يقول(١) : « واختلف العلماء فى كيفيّة قَسم الخمس على أقوال ستّة .

الأوّل : قالت طائفة : يقسم الخمس على ستّة . فيُجْعَل السّدس للكعبة ، وهو الّذى لله . والثّانى لرسول الله ﷺ . والثّالث لذوى القربى . والرّابع لليتامى . والخامس للمساكين . والسّادس لابن السّبيل . وقال بعض أصحاب هذا القول : يُردّ السّهم الّذى لله على ذوى الحاجة(٢) .

الثّانى : قال أبو العالية والرّبيع : تقسم الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهمٌ واحد ، وتقسم الأربعة على النّاس ثمّ يضرب بيده فى السّهم الّذى عزله فما قبض عليه من شيءٍ جعله للكعبة . ثمّ يَقْسم بقيّة السّهم الّذى عزله على خمسة ، سهمٌ للنّبيّ ﷺ ، وسهمٌ لذوى القربى ، وسهمٌ لليتامى ، وسهمٌ للمساكين ، وسهمٌ لابن السّبيل .

الثّالث : قال المنهال بن عمرو : سألت عبد الله بن محمّد بن عليّ وعليّ بن الحسين عن الخمس فقال : هو لنا . قلت لعليّ . إنّ الله تعالى يقول : ﴿ واليتامى والمساكين وابن السّبيل ﴾ فقال : أيتامنا ومساكيننا .

الرّابع : قال الشّافعيّ : يقسم على خمسة . ورأى أنّ سهم الله ورسوله واحد ، وأنّه يصرف فى مصالح المؤمنين . والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورين فى الآية .

الخامس : قال أبو حنيفة : يقسم على ثلاثة . اليتامى والمساكين وابن السّبيل . وارتفع عنده حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته ، كما ارتفع حكم سهمه . قالوا : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجند . وروي نحو هذا عن الشّافعيّ أيضًا .

---

(١) تفسير القرطبى : ٢٨٤٩ .

(٢) انظر هنا تفسير ابن كثير ٢/٣١٠ وتفسير الطبرى ٤/١٠ .

السّادس : قال مالك : هو موكولٌ إلى نظر الإمام واجتهاده ، فيأخذ منه من غير تقدير . ويعطي منه القرابة باجتهاد . ويصرف الباقي في مصالح المسلمين . وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا . وعليه يدلّ قوله ﷺ : ما لى ممّا أفاء الله عليكم إلاّ الخمس . والخمس مردودٌ عليكم . فإنّه لم يقسمه أخماسًا ولا أثلاثًا . وإنّما ذكر في الآية من ذُكِر على وجه التّنبيه عليهم ، لأنّهم من أهمّ من يدفع إليه » .

وقد علّق ابن كثير في تفسيره[1] على هذا الرّأي السّادس بالقول : « وقال شيخنا الإمام العلاّمة ابن تيمية رحمه الله : وهذا قول مالك وأكثر السّلف وهو أصحّ الأقوال . فإذا ثبت هذا وعلم فقد اختلف أيضًا في الّذى كان يناله عليه السّلام من الخمس ماذا يصنع به من بعده . فقال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده . رُوي هذا عن أبى بكر وعليّ وقتادة وجماعة . وجاء فيه حديثٌ مرفوع . وقال آخرون يصرف في مصالح المسلمين . وقال آخرون : بل هو مردودٌ على بقيّة الأصناف ، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل . اختاره ابن جرير . وقال آخرون : بل سهم النّبيّ ﷺ وسهم ذوى القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السّبيل . قال ابن جرير : وذلك قول جماعةٍ من أهل العراق . وقيل إنّ الخمس جميعه لذوى القربى كما رواه ابن جرير » .

وممّا يلفت النّظر في الآية الكريمة استعمال لفظ العبد في هذه المناسبة العظيمة مناسبة نزول الملائكة والفرقان في يوم بدرٍ يوم الفرقان على عبد الله ورسوله محمّد ﷺ وذلك في القول : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ ولا يخفى الانسجام الصّوتيّ بين لفظتي ﴿ الفرقان ﴾ و﴿ الجمعان ﴾ هذا إلى دلالة لفظة : ﴿ قدير ﴾ في صيغة المبالغة على القدرة المطلقة للذّات العليّة . وبعد الإيماء إلى يوم بدرٍ من زاوية الزّمان يكون الإيماء إليه من زاوية المكان وذلك في .

---

[1]) تفسير ابن كثير ٣١٢/٢ .

الآيــة رقــم (٤٢)

قال تعالى : ﴿ إذ أنتــم بـالعُدْوة الدّنيـا وهـم بـالعُدْوة القُصْوى والرّكـب أَسْفَلَ منكم . ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً لِيَهْلِـك من هلك عن بيّنةٍ ويحيى من حَيَّ عنَ بيّنةٍ . وإنّ الله لسميعٌ عليم ﴾ .

إذ من القول : ﴿ إذ أنتم بـالعدوة الدّنيـا ﴾ بـدل مـن يـوم مـن القـول فـي الآيـة الكريمة السّابقة : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقـى الجمعان ﴾ إذ ظرف للزّمن الماضى فـى محـلّ نصـب بـدل مـن كلمـة يـوم[1] والآيـة الكريمة تبيّن بطريقةٍ تصويريّة بديعةٍ وترتّب الفئات من حيث أماكنها في ضوء البعـد المطّرد عن المدينــة والقـرب المطّـرد إلى مكّـة . وبذلـك يسـاعد ذلـك التّرتيب علـى التّصوّر للأمـاكن ويريـح الذّهـن . وبقـدر مسـاعدة التّرتيب علـى تصـوّر الأمـاكن للفئات الثّلاث يعمّق من حرص المؤمنين على العير وشدّة الحسـرة لفواتهـا ، خاصّـةً وأنّ الّذين يحولون بين المسلمين وبين العير هم مشركو قريش . وذلـك معنـاه النّفـير أي القتال بعد نجاة العير أي القافلة .

إنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ المؤمنـين كـانوا بـالعدوة الدّنيـا مـن وادى بـدر وجـانب الوادى[2] وشفير الوادي الأدنى من المدينة[3] وبالإضافة إلى إفادة لفظة : ﴿ الدّنيا ﴾ الجهة الأدنى والأقرب إلى المدينة هي تفيد انخفاض هذه الجهة من الوادى . كما تبيّن الآية الكريمــة أنّ المشـركين كـانوا بـالعدوة القصـوى ، أي بجـانب الـوادى وشـفيره الأقصى إلى مكّة[4] البعيد من المدينة المنوّرة إلى مكّة المكرّمة[5] وبالإضافــة إلى إفـادة لفظة : ﴿ القصوى ﴾ الجهة الأبعد من المدينة إلى مكة هي تفيد ارتفـاع هـذه الجهـة

---

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ١٩٧/٥ والجلالين .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « عدا » ٣٢٧ .
(٣) تفسير الطّبري ٨/١٠ وتفسير ابن كثير ٣١٣/٢ .
(٤) تفسير الطّبري ١٠ / ٨ . (٥) تفسير ابن كثير ٣١٣/٢

من الوادى . ولانخفاض جهة الوادي الّتى فيها المسلمون وتطامنها واستوائها ، ولارتفاع جهة الوادى الّتى فيها المشركون ونتوئها وانحدارها ، دورٌ فعّال بشأن الماء الّذى أنزله الله تعالى من السّماء ليلة الجمعة الّتى كان يوم بدر فى صباحها . لقد عرفنا أنّ المطر كان نعمةً على المؤمنين فقد لبّد الأرض الرّمليّة فأصبحت حركة القدم والخفّ والحافر سهلةً سلسة ، فى حين كان المطر نقمةً على الكافرين بسبب كثرته من ناحية ، وكون الأرض زَلِقةً من ناحيةٍ أخرى لا يثبت عليها قدمٌ ولا خفٌّ ولا حافر . كما تبيّن الآية الكريمة أنّ الرّكب بمعنى العير والقافلة بقيادة أبى سفيان كان أسفل الفريقين بمحاذاة ساحل البحر الأحمر . إنّ أبا سفيان حينما ورد بالرّكب ماء بدرٍ ، علم بقرب جيش المصطفى ﷺ عن طريق النّوى الّذى وجده فى أبعار بعيري الرّاكبين اللّذين بعثهما النّبيّ ﷺ إلى ماء بدرٍ يتجسّسان الأخبار : « فقال : هذه والله علائف يثرب . فرجع إلى أصحابه سريعًا ، فضرب وجه عيره عن الطّريق فساحل بها ، وترك بدرًا بيسار ، وانطلق حتّى أسرع »[١] .

وهكذا شاء الله تعالى أن ينجو أبو سفيان بالعير ، وأن يحال بين المسلمين وبين ما يشتهون من الحصول على العير وتحاشى ذات الشّوكة والقتال . وبإذن الله تعالى كان المشركون بين المسلمين وهم فى الجهة من بدر الأدنى إلى المدينة ، وبين الرّكب بقيادة أبى سفيان بمحاذاة السّاحل . والمعنى أنّ المسلمين حينما تبيّنوا جيش قريش فى العدوة القصوى من الودى خلف الكثيب يئسوا تمامًا من القافلة ولم يكن فى إمكانهم مجرّد التّفكير فى تعقّب القافلة . وهكذا نجت القافلة بإرادة الله تعالى وكان لزامًا بإذن الله تعالى أن يلتقي الجمعان وأن يتحقّق وعد الله تعالى المؤمنين إحدى الطّائفتين أنها لهم . وبما أنّ العير لم تكن للمؤمنين فذلك معناه أنّ النّصر الّذى وعدهم الله تعالى إيّاه سيكون لهم ومن نصيبهم . وإليك هذا النّصّ من السّيرة النّبويّة الّذى يفهم منه أنّ لفظتي الدّنيا والقصوى من القول : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدّنيا وهم بالعدوة القصوى ﴾ تشير أولاهما إلى انخفاض العدوة الدّنيا إضافة إلى

---

(١) السّيرة النّبويّة ١ / ٦١٨ .

دنوّها من المدينة المنوّرة ، وتشير أخراهما إلى ارتفاع العدوة القصوى إضافة إلى بعدها من المدينة المنوّرة : « قال ابن إسحاق : ومضت قريش حتّى نزلوا بالعُدوة القُصْوَى من الوادى خلف العقَنْقَل وبطن الوادى ، وهو يَلْيَل ، بين بدر وبين العَقَنْقَل الكثيب الّذى خلفه قريش . والقُلُب[١] ببدرٍ فى العُدْوة الدّنيا من بطنِ يليل إلى المدينة . وبعث الله السّماء وكان الوادى دَهْسًا[٢] فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبّد لهم الأرض ولم يمنعهم عن السّير . وأصاب قريشًا منها ما لم يَقْدِروا على أن يرتحلوا معه . فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء ، حتّى إذا جاء أدنى ماءٍ من بدرٍ نزل به »[٣] .

وإذا كنّا فهمنا من العدوة الدّنيا الانخفاض إضافةً إلى القرب من المدينة ومن العدوة القصوى الارتفاع إضافةً إلى البعد من المدينة فإنّا نستطيع أن نفهم من لفظة أسفل فى القول : ﴿ والرّكب أسفل منكم ﴾ انخفاض ساحل البحر الأحمر عن مستوى سطح الأرض فى بدر ، هذا بالإضافة إلى انحدار ساحل البحر الأحمر باتّجاه مكّة المكرّمة ، ممّا يجعل مهمّة أبى سفيان فى الفرار بالعير أكثر يسرًا ، وكلّ ذلك معناه بإذن الله تعالى أنّ التقاء الجمعين أمرٌ لا محيد عنه فقد تأكّد نجاة العير واستحالة اللّحاق بها والاستيلاء عليها .

والشّىء الّذى نرغب فى الإشارة إليه هو أنّ الوصف لهذه المواقع اعتمد كذلك على المشاهدة الميدانيّة . فعلى سبيل المثال ، نستطيع أن نتبيّن أنّ الاتّجاه من المدينة المنوّرة إلى مكّة المكرّمة بمحاذاة السّاحل – وغير السّاحل – يعتبر نزولاً وليس صعودًا بالمقارنة بين كمّيّة الوقود الأقلّ الّذى تستهلكه السّيّارة فى اتّجاهها من المدينة المنوّرة إلى مكّة المكرّمة بالقياس إلى كمّيّة الوقود الأكثر الّذى تستهلكه فى اتّجاهها من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة .

---

(١) القُلُب جمع قليب ، وهو البئر . (٢) الدّهس : كلّ مكان ليّن لم يبلغ أن يكون رملاً .
(٣) السّيرة النّبوية ٦١٩/١ .

وفى القـول : ﴿ ولـو تواعـدتم لاختلفتـم فـى الميعـاد ﴾ تقـرّر الآيـة الكريمـة فـى خطابها للمؤمنين أنّهم لو تواعدوا مع المشركين على الالتقاء فى بدرٍ للقتال ثمّ تبيّـن للمؤمنين أنّهم قلّةٌ بالقياس للمشركين فى العَدد والعُدد وأذلّة لاختلفوا مع المشـركين فى الميعاد وانسحبوا من ميدان المعركة وقتال المشركين .

ولمّا كان النّصر فى كلّ المعارك من عند الله تعالى وحده لا شريك له وقد قضـى الله تعالى الّذى لا رادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه بنصر المؤمنين رغـم قلّتهـم وذلّتهـم فقد نصّت الآية الكريمة على هذا الأمـر المفعـول الّـذى قضـاه الله تعـالى وذلـك فـى القول : ﴿ ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً ﴾ وقد هيّأ الله سبحانه وتعـالى كـلّ الأسباب الّتى تؤدّى إلى نصر المؤمنين ، ومنها ما ذكرتـه السّـورة الكريمـة ومنهـا مـا سوف تذكره . وقد نصّت الآية الكريمة على الغاية من نصر المؤمنين ودحر المشركين وذلك فى القول : ﴿ ليهلك من هلك عن بيّنةٍ ويحيى من حيّ عن بيّنة ﴾ والمعنى أنّ قضاء الله تعالى بنصر الفئة المؤمنة القليلة على الفئة المشركة الكثيرة كي يأخذ الجميع العبرة بأنّ الله سبحانه وتعالى غالبٌ على أمره وليهلك بعد ذلك من هلك بإصراره على كفره عن حجّةٍ بيّنةٍ وحكمةٍ بالغة ، وكي يحيى مـن حـيّ بإيمانـه واتّباعـه خـير الأنام ﷺ عن حجّةٍ بيّنةٍ وحكمةٍ بالغةٍ كذلك . ﴿ وإنّ الله لسـميعٌ عليـم ﴾ ومـن البيّن أنّ صيغة المبالغـة فعيـل تفيـد إحاطـة الله تعـالى بكـل نيّـةٍ وقـولٍ وفعـل خُبْرًا وعلمًا . إنّ الله تعالى السّميع العليم هو الّذى نصـر فـى بـدر المؤمنـين القلّـة والأذلّـة على الكافرين الفاجرين . وإنّ النّصر فى حقّ المؤمنين رمزٌ لكـلّ نصـرٍ لهـم مـن ربّ العالمين إلى يوم الدّين . وإنّ الهزيمة فى حقّ المشـركين رمـزٌ لكـلّ هزيمـةٍ لهـم إلى يـوم الدّين كذلك .

ويواصل السّياق ذكر بعض الأسباب بـين يـدي الأمـرِ المفعـول الّـذى قضـاه الله تعالى فى بدرٍ بنصر المؤمنين فإلى .

الآيـــة رقـــم (٤٣)

قـال تعـالى : ﴿ إذ يريكهـم الله فـى منـامك قليـلاً ولـو أراكهـم كثـيرًا لفشـلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكنّ الله سلّم . إنّه عليمٌ بذات الصّدور ﴾ .

نستطيع أن نفهم من الآية الكريمة ومن الآية الكريمة التّالية كذلك الـدّور النّفسيّ الفعّال فى الحروب سلبًا أو إيجابًا . ونستطيع أن نربط بين الآيـة الكريمـة وبين الآيـة الكريمة السّابقة على هـذا النّحـو . وإنّ الله سبحانه وتعالى لسميعٌ لأقوالكم أيّها المؤمنون عليمٌ بنيّاتكم وأفعالكم إذ يريك ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ، وإذ يريك الله تعالى اللّطيف الخبير المشركين فى منامك قليلاً وفى رؤيـاك الكـافرين نزرًا يسيرًا . إنّـك أيّهـا الرّسـول الكريـم والنّبيّ العظيـمٌ أخـبرت أصحـابك برؤيـاك فنشطوا للقتال وصمّموا على النّزال لأنّهم فهموا أنّهـم أكـثر من المشـركين عـددًا وعدّة . ولو أنّ ربّك جلّ وعلا أراك فى منامك المشركين كثيرًا وأخبرت أصحـابك لفشلتم ولضعفتم مع جبن[1] ولنكصتم على أعقـابكم مـع خـوف[2] ولتنـازعتم فـى الأمر ، واختلفتم فى شأن القتال ، فذهب بعضكم إلى اقتراح القتال توكّلاً على الله تعالى ، وذهب بعضكم الآخر إلى عدم القتال لأنّ كـلّ الحسـابات المادّيّـة تـؤدّى إلى هذا الموقف وتفضى إلى تلك النّتيجة ، ولكـنّ الله سـبحانه وتعـالى بمـا قـصّ عليكـم رسوله ﷺ من رؤيا رآها يتبيّن منهـا عـدد الكـافرين القليـل وعدّتهـم سـلّمكم مـن الفشل والتّنازع . إنّ الله سبحانه وتعالى هو العليم ، هكذا فى صيغة المبالغة ، بخبايـا النّفوس ودخائل القلوب وذات الصّدور .

وهكذا يتبيّن من الآية الكريمة الدّور الخطير للحروب النّفسيّة فى المعارك سلبًا أو إيجابًا . وإنّ على المسلمين أن يستفيدوا من هـذه الـدّروس القرآنيّـة فـى حربهـم مـع الباطل . والمعروف أنّ الحرب بين الحقّ والباطل موصولةٌ ما دام الحقّ بحاجة إلى يجىء

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « فشل » ٣٨٠ .
(٢) انظر تفسير الطّبري ١٠/١٠ .

ويتأكّد ، وما دام الباطل بحاجةٍ إلى أن يذهب ويزهق . وإنّ هذا المعنى تؤكده الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيــة رقــم (٤٤)

قال تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقلّلكم فى أعينهم ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً ، وإلى الله تُرْجَع الأمور ﴾ .

من البيّن أنّ الآية الكريمة معطوفةٌ على سابقتها : ويصحّ أن يكون المعنى : إنّ الله سبحانه وتعالى لسميعٌ عليم إذ يريك المشركين فى منامك قليلاً وإذ يريكموهم أيّها المؤمنون إذ التقيتم بهم فى ميدان المعركة وجهًا لوجه فى بدر فى أعينكم قليلاً لتقوى قلوبكم على قتالهم ، ويقلّلكم جلّ وعلا فى أعينهم ليستهينوا بكم فلا يأخذوا الأمر مأخذ الجدّ ولا يعدّوا للحال عدّته . لقد كان ذلك ليقضي الله سبحانه وتعالى أمرًا كان مفعولاً بانتصاركم أيّها المؤمنون فى أولى معارك الإسلام الحاسمة والفاصلة في بدر . إنّكم أيّها المؤمنون كنتم قلّةً وأذلّةً فى بدرٍ فنصركم . وإنّ الكافرين كانوا أكثر عددًا وعدّةً فهزمهم شرّ هزيمة إذ قتلتم منهم سبعين وأسرتم سبعين . وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ وإلى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ إنّ كلّ الأمور فى الأولى والآخرة تُرْجع إلى الله تعالى . وفى يوم القيامة توفّى كلّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يُظْلَمون بحذف حسنة أو إضافة سيّئة .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لقد قلّلوا فى أعيننا يوم بدرٍ حتّى قلت لرجلٍ إلى جنبى : تراهم سبعين ؟ قال : لا بل هم مائة ! حتّى أخذنا رجلاً منهم فسألناه فقال : كنّا ألفًا(١) .

وإذا كان ربّ العزّة قد أرى المصطفى ﷺ فى منامه المشركين قليلاً وأرى المؤمنين ساعة اللّقاء المشركين قليلاً كما أرى المشركين المؤمنين قليلاً كي ينشط المؤمنون ويتخاذل الكافرون فإنّ الوطيس حينما حميَ أرى الله تعالى المشركين

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣١٥ وتفسير الطّبري ١٠/١٠ .

المؤمنين مثليهم فى العدد . وإلى ذلك أشار الحقّ جلّ وعلا خطابًا للكافرين وفى مقدّمتهم يهود بنى قينقاع فى سورة آل عمران(١) : ﴿ قد كان لكم آيةٌ فى فئتين التقتا . فئةٌ تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرةٌ يرونهم مثليهم رأي العين . والله يؤيّد بنصره من يشاء . إنّ فى ذلك لعبرةً لأولى الأبصار ﴾ والمعنى : قد كان لكم أيّها الكافرون آيةٌ وعبرةٌ فى فئتين التقتا فى بدر . فئةٌ أولى مؤمنةٌ تقاتل فى سبيل الله تعالى وفئةٌ أخرى كافرةٌ تقاتل فى سبيل الشّيطان الرّجيم . وتلك الفئة الأخرى الكافرة يرون المؤمنين مثليهم فى العدد والعدّة رأي العين المبصرة على الحقيقة . إنّ فى ذلك التّأييد من الله تعالى لعبرةً وعظةً لأولى البصائر النّيّرة(٢) وكان من الله تعالى نوعٌ آخر من التّأييد تمثّل فى الملائكة الّذين أمدّ الله تعالى بهم المؤمنين فى بدر . لقد كان التّأييد أوّل الأمر بألفٍ من الملائكة مردفين متتابعين يتبع بعضهم بعضًا ويتبعهم غيرهم . ثمّ ارتفع العدد إلى ثلاثة آلافٍ فخمسة آلاف . جاء فى سورة الأنفال(٣) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّى ممدّكم بألفٍ من الملائكة مردفين ﴾ وجاء فى سورة آل عمران(٤) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّةٌ فاتّقوا الله لعلّكم تشكرون . إ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة مُنْزَلين . بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلافٍ من الملائكة مسوِّمين ﴾ .

---

(١) الآية ١٣ .

(٢) درسنا الآية الكريمة فى كتابنا : تأمّلات فى سورة آل عمران ٤٥ – ٥١ .

(٣) الآية ٩ .

(٤) الآيات ١٢٣ – ١٢٥ وقد درسنا الآيات الكريمات فى : تأمّلات فى سورة آل عمران ٣٨١ – ٣٨٥ .

[٧]

« بعض شروط النّصر ومنها التّوكّل على الله تعالى »

الآيات (٤٥ ـ ٤٩)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً
فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٤٥
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ
وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ
خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٤٧ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ
ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٤٨ إِذْ يَقُولُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ
وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٩

بيّنت آيات القسم السّابق الكثير من فضل الله تعالى على المؤمنين في قتالهم مع الكافرين . ولمّا كان على المؤمنين المجاهدين في سبيل الله تعالى الكثير من الواجبات فإنّ آيات هذا القسم التّالي تشير إلى بعض تلك الواجبات بين يدي النّصر من الله تعالى . إنّ السّياق يبيّن الأمور المطلوبة من جيش الإيمان وقد وقف أمام جيش الطّغيان في ميدان المعركة وجهًا لوجه . ويصحّ أن يقال عن هذه الأمور المطلوبة الآن إنّها شروط النّصر يوم يلتقي الجمعان . إنّ الأمور المطلوبة من المؤمنين آنذاك خمسة ، أو إنّ شروط النّصر بإذن الله تعالى خمسة ، وسبق أن تبيّنا في الآيتين الكريمتين الثانية والثّالثة من السّورة الكريمة أنّ شروط الإيمان هي الأخرى خمسة . إنّ المطلوب من جيش الإيمان أن يثبت أمام جيش الطّغيان كالجبل الرّاسخ . وهذا الثّبات عند الصّدمة الأولى بحاجة إلى المقوّمات الأخرى الّتي تحافظ عليه بإذن الله تعالى وتقويه . وهذه الصّفات هي ذكر الله تعالى ذكرًا كثيرًا لعلّ المؤمنين يفلحون وينتصرون . وإنّ في النّصّ على ذكر الله تعالى ابتداءً في ذلك الموقف العصيب تنبيهًا إلى أهمّيّة الذّكر والقيام به في كلّ الأوقات والأحوال . ويأتي بعد الأمر بالذّكر الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ طاعةً مطلقة . والمعروف أنّ طاعة الله تعالى أوسع من الذّكر الّذي أسلم إليها . وبهذا يتقدّم الحقّ الّذي هو لله تعالى على حقّ المصطفى ﷺ ، وهذا أمرٌ طبيعيٌ . ومن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ ترك المجاهدين التّنازع والتّخاصم واستمساك كلٍّ برأيه لأنّ في ذلك تبديد الطّاقة وبعثرة الجهد والفشل بمعنى الجبن والخوف وذهاب الرّيح بمعنى النّصر . وفي ذهاب ريح النّصر حلول ريح الهزيمة محلّها ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم . والمعروف أنّ الرّيح ملتئمة وسريعة . وتلك صفة ريح النّصر في المجيء وفي الرّحيل وحلول الهزيمة محلّها ، لا سمح الله . إنّ ترك التّنازع هو الشّرط الرّابع . وكما كان الشّرط الأوّل ، وهو الأمر بالثّبات ، متعلّقًا بذوات المجاهدين كان الشّرط الخامس ، وهو من جنس الشّرط الأوّل وامتدادٌ له . وهذا الشّرط هو الأمر بالصّبر . وهكذا يؤمر المجاهدون بأن يثبتوا عند ابتداء القتال ، وبأن يصبروا بعد ذلك . ولا حدّ للصّبر

حتّى يكون النّصر للمؤمنين بإذن الله تعالى أو الشّهادة . ودليلاً على أهمّيّة الصّبر اقتران التّذييل الّذى يحثّ على الصّبر به . قال تعالى : ﴿ واصبروا إنّ الله مع الصّابرين ﴾ ولمّا كان العمل الّذى يقوم به المجاهدون صوابًا بمقياس الإسلام وبذلك تحقّق فيه أحد شرطين ينبغى توافرهما فى العمل كي يتفضّل الله تعالى بقبوله وهو شرط الصّلاح وبقي آخر الشّرطين وهو إخلاص النّيّة وكون العمل إنّما يراد به وجه الله تعالى فإنّ السّياق قد تعرّض لهذا الشّرط بعد ذلك . إنّ المؤمنين المجاهدين يُنْهَوْن أن يكونوا مثل كفّار مكّة الّذين خرجوا من ديارهم للقتال بطرًا وكِبْرًا ، مراءاة النّاس وفخرًا . وبالإضافة إلى فساد نيّة الكافرين فساد العمل بقتال المؤمنين وبالصّدّ عن سبيل الله تعالى العليم المحيط علمًا بما يعملون . ويلاحظ أنّ النّصّ على العمل الّذى قام به الكافرون ، وقد عرفنا فساده ، جاء فى حقّه قوله الحقّ جلّ وعلا : ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ وبذلك جمع السّياق بين فساد نيّة الكافرين وفساد عملهم الّذى هوى إلى أعمق الدّركات بالصّدّ عن سبيل الله تعالى . ولمّا كان الشّيطان الرّجيم هو الّذى ينزغ الكافرين فإنّ السّياق يقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى لسميعٌ عليم كذلك إذ زيّن الشّيطان الرّجيم لكفّار مكّة سوء أعمالهم . وبالإضافة إلى تزيين الشّيطان سوء الأعمال للكافرين هو يقول لهم إنّهم لا غالب لهم يوم بدر من النّاس ، وإنّ اللّعين جارٌ لهم فلن يساعد أحدٌ من بنى بكر وسواهم محمّدًا ﷺ وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . ودليلاً على كذب الشّيطان فى كلّ أقواله ووعوده هو ينقضها الواحد تلو الآخر مبتدئًا بآخرها ومن هنا كان ترتيب نقض الأقوال والوعود بعكس ترتيب سردها . وكما كان فى صدر الآية الكريمة قولان للّعين وتزيين لسوء العمل ، كان فى عجز الآية الكريمة قولان للّعين ورجوعٌ فعليٌّ على العقبين . والله سبحانه وتعالى لسميعٌ عليم إذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض الشّكوك خَدَعَ المؤمنين عن حقيقة أقدارهم دينُهُم ، ونسوا أنّ المؤمنين متوكّلون على الله تعالى العزيز الحكيم فتوكّلوا على الله تعالى أيّها المؤمنون .

الآيتـــان رقـــم (٤٥ ، ٤٦)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلّكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا . إنّ الله مع الصّابرين ﴾ .

تنادى الآية الكريمة الأولى الّذين آمنوا وتقول لهم فى معرض الإرشاد إلى بعض شروط النّصر بإذن الله تعالى بأنّ عليهم إذا لقوا فئةً كافرةً فى ميدان القتال وجهًا لوجه فإنّ عليهم أن يثبتوا كالجبال الرّاسيات وعليهم ألاّ يولّوا المشركين الأدبار وإلاّ باءوا بغضبٍ من الله تعالى ، إلاّ فى حالتين اثنتين مرّتا بنا من قبل بأن ينسحبوا من أجل القتال فى موضع آخر أنكى فى العدوّ أو بأن ينضمّوا إلى فئةٍ مؤمنةٍ لتقوية الجبهة ضدّ العدوّ . ولّما كان الثّبات أمام العدوّ بحاجةٍ إلى القلب الموصول بالله تعالى والنّفس المتعلّقة به جلّ وعلا فقد تحقّق ذلك فى الأمر الثّانى فى الآية الكريمة وذلك فى القول : ﴿ واذكروا الله كثيرًا لعلّكم تفلحون ﴾ ومن البيّن أنّ هذا الأمر يتضمّن الصّفة الثّانية من شروط النّصر بإذن الله تعالى . وهذه الصّفة الثّانية هي ذكر المؤمنين الله تعالى ذكرًا كثيرًا تحت ظلال السّيوف . ولا يكاد يوجد موقفٌ فى الحياة أصعب على النّفس من هذا الموقف الّذى يكاد الموت يجيء فيه من كلّ جانب . ومع ذلك فإنّ المؤمن مأمورٌ فى ذلك الموقف العصيب بأن يذكر الله تعالى ذكرًا كثيرًا عن طريق التّسبيح والتّحميد والتّهليل والتّكبير . وحينما نتبيّن أنّ هذه الصّفة الثّانية هي الّتى اقترن بها القول : ﴿ لعلّكم تفلحون ﴾ نستطيع أن نفهم أنّ هذا الشّرط الثّانى أهمّ الشّرطين فما النّصر إلاّ من عند الله تعالى وما الرّبط على القلوب وتثبيت الأقدام إلاّ بفضل الله تعالى .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة لا تكتفى بمجرّد ذكر الله تعالى إنّما تبيّن أنّ ذكر الله تعالى ينبغى أن يكون كثيرًا . ونستطيع أن نفهم من الجمع بين الشّرطين فحوى هذه

الآية الكريمة من سورة العنكبوت(١) قال تعالى : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ لقد كان من المؤمنين جهادٌ فى سبيل الله تعالى تمثل فى ثباتهم فى ميدان المعركة حسّيًا . وإنّ ربّ العزّة ليهديهم سبله ويوفّقهم كي يذكروه جلّ وعلا ذكرًا كثيرًا بين يدي النّصر الّذى وعد الله تعالى به عباده الّذين ينصرون الله تعالى .

ويلاحظ أنّ دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده لم يضع حدًّا ولا نهايةً لشعيرةٍ واحدةٍ من شعائر العبادة ألا وهي ذكر الله تعالى . وما أكثر الآيات القرآنيّة الّتى نصّت على ذلك . ومن تلك الآيات الكريمات قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأحزاب(٢) : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا . وسبّحوه بكرةً وأصيلا ﴾ وقول الحقّ جلّ وعلا فى سورة النّساء(٣) : ﴿ فإذا قضيتم الصّلاة فاذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتم فأقيموا الصّلاة . إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتا ﴾ .

ومن البيّن بشأن شرط الثّبات والأمر به أنّه كان أوّل الشّروط لأنّ بقيّة الشّروط مبنيّةٌ عليه ، ولأنّ عدم الثّبات فى المعركة معناه الهزيمة فلزم الثّبات شرطًا أوّل من بين شروط النّصر بإذن الله تعالى .

ومن البيّن كذلك أنّ الأمر بذكر الله تعالى هنا مرتبطٌ بأصعب المواطن وأحلك المواقف وفى ذلك دليلٌ على أنّ لسان المؤمن ينبغى أن يكون دائمًا وأبدًا رطبًا بذكر الله تعالى لأنّ كلّ المواقف تقلّ خطورة عن الوقوف فى ميدان القتال أمام الكفّار وجهًا لوجه .

ثبت فى الصّحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى أنّ رسول الله ﷺ انتظر فى بعض أيّامه الّتى لقي فيها العدوّ حتّى إذا مالت الشّمس قام فيهم فقال : يا أيّها النّاس لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا الله العافية . فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السّيوف ، ثمّ قام النّبيّ ﷺ وقال : اللهم منزل الكتاب ، ومجرى

---

(١) الآية ٦٩ .   (٢) الآية ٤١ و٤٢ .   (٣) الآية ١٠٣ .

السّحاب ، وهازم الأحزاب ، اِهزمهم وانصرنا عليهم[١] وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا الله العافية . فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله . فإن صَخِبوا وصاحوا فعليكم بالصّمت[٢] وعن زيد ابن أرقم عن النّبيّ ﷺ مرفوعًا قال : إنّ الله يحبّ الصّمت عند ثلاث ، عند تلاوة القرآن ، وعند الزّحف ، وعند الجَنازة[٣] .

وإذا كانت الآية تضمّنت شرطين من شروط النّصر بإذن الله تعالى فإنّ الآية الكريمة التّالية تضمّنت ثلاثة شروط . ومن البيّن أن شرط ذكر الله تعالى المترتّب على شرط الثّبات أمام الأعداء والّذى يبيّن حقّ الله تعالى ابتداءً يعتبر توطئةً للشّرط الثّالث الّذى يكمل به بعض حقّ الله تعالى من شروط النّصر بإذن الله تعالى ويتبيّن معه حقّ رسول الله ﷺ . قال تعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ وهكذا يكون فى الآيتين الكريمتين تدرّج وتحوّلٌ من حقّ الله تعالى إلى حقّ رسوله ﷺ . وإنّ الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ يذكّرنا بقول الحقّ جلّ وعلا فى سورة النّساء[٤] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شىء فردّوه إلى الله والرّسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا ﴾ واللّطيف فى الأمر أنّ الإشارة إلى التّنازع المحتمل فى آية سورة النّساء أصبح التّحذير منه الشّرط الرّابع من شروط النّصر بإذن الله تعالى .

ومعنى القول : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ وأطيعوا الله تعالى طاعةً مطلقةً وأطيعوا رسوله محمّدًا ﷺ طاعةً مطلقةً لأنّه عليه الصّلاة والسّلام إنّما يقول بوحيٍ من الله تعالى ، وقد جاء فى سورة النّجم[٥] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ والنّجم إذا هوى . ما ضلّ صاحبكم وما غوَى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلاّ وحيٌ يوحَى ﴾ ومن مظاهر طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ الثّبات فى ميدان المعركة حتّى إدراك إحدى الحسنيين بإذن الله تعالى ، النّصر أو الشّهادة ، وذكر الله تعالى ذكرًا كثيرًا وتحقيق بقيّة شروط النّصر بإذن الله تعالى .

(٣،٢،١) تفسير ابن كثير ٢ / ٣١٦ . (٤) الآية ٥٩ . (٥) الآيات ١ ـ ٤ .

وبعد الشّروط الثّلاثة الّتي جاءت في صيغة الأمر يجيء الشّرط الرّابع في صيغة النّهي وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ .

التّنازع والمنازعة المجاذبة ويعبّر بهما عن المخاصمة والمجادلة(١) .

من المعروف أنّ الخلاف شرٌّ كلّه . وحينما يكون ثمّة طاعةٌ مطلقةٌ لله تعالى ولرسوله ﷺ فلا مجال بإذن الله تعالى للنّزاع والخلاف . وإنّما يأتي الشّقاق حينما يكون ثمّة ابتعادٌ عن تطبيق تعاليم الإسلام وبقدر الابتعاد عن تطبيق تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين يكون النّزاع والشّقاق . وإذا كان النّزاع منهيًّا عنه في كلّ الأحوال فإنّه منهيٌّ عنه في آكد الصّيغ في ميدان المعركة والوقوف وجهًا لوجهٍ أمام أعداء الله تعالى وأعداء رسوله ﷺ لأنّ لذلك اليوم ما بعده ، ولأنّ القرار الّذي اتّخذته القيادة المسلمة كان ثمرة التّشاور وميل المسلمين في مجموعهم إليه . وبعد اتّفاق الكلمة على القرار يجب العَزْم المتوكّل على الله تعالى بتنفيذ ذلك القرار ، ولو لم يكن ذلك القرار رأي القيادة في الأساس . وإنّ لنا أكبر درسٍ في الشّورى تنفيذ المصطفى ﷺ في غزوة أحد القرار الّذي أفضى إليه التّشاور على الرّغم من كون ذلك القرار غير الرّأي الّذي ارتآه المصطفى ﷺ والّذي نفّذه عليه الصّلاة والسّلام بعد ذلك في غزوة الأحزاب أو الخندق سنة خمسٍ من الهجرة . لقد وضع المصطفى ﷺ في أُحُد خطّةً حربيّةً جديدةً ناجحة حتّى خالف الرّماة أمر المصطفى ﷺ بعدم مغادرة جبل الرّماة مطلقًا . إنّ الرّماة حينما خالفوا أمر المصطفى ﷺ وانكشف ظهرهم للأعداء تحوّل النّصر بإذن الله تعالى إلى هزيمة .

إنّ القرار في المعركة حينما تتمخّض عنه الشّورى لن يكون معه بإذن الله تعالى فرصةٌ للنّزاع . ودليلاً على خطورة النّزاع تجعل الآية الكريمة النّهي عنه والتّحذير من عواقبه الوخيمة الشّرط الرّابع من شروط النّصر بإذن الله تعالى .

وما معنى التّنازع بشأن القول : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ معناه تجاذب القوى بعنف وتبدّدها في غير طائل وأكل بعض أجزاء الطّاقة بعضها الآخر

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « نزع » ٤٨٨ .

من الأجزاء . ونستطيع أن نفهم الجذب بعنفٍ في غير طائل بشأن التّنازع من مثل قول الحقّ جلّ وعلا(١) : ﴿ والنّازعات غرقا ﴾ تنبيهًا على نزع ملائكة العذاب بعنفٍ أرواح المشركين ساعة الموت . ومن مثل قول الحقّ جلّ وعلا(٢) : ﴿ قل اللهمّ مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير . إنّك على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

وهكذا يتبيّن أنّ الثّمرة النّكدة لتنازع القوى وتجاذبها في غير طائل وتبدّدها الفشل بمعنى الجبن والخوف والضّعف وكلّ ذلك يؤدّى إلى ذهاب الرّيح والهزيمة والعياذ بالله . وإذا كانت الآية الكريمة قد جمعت بين التّنازع والفشل وأفهمت من القول : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا ﴾ أنّ التّنازع يؤدّى إلى الفشل فإنّ هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران تجمع بين الفشل والتّنازع في الأمر وتُفْهِم من تقديم الفشل على التّنازع أنّ فشل بعض الرّماة في غزوة أحد على جبل الرّماة وتنازعهم في أمر البقاء والثّبات عليه وقد أمرهم عليه الصّلاة والسّلام بعدم مغادرة الجبل بحالٍ من الأحوال ، إنّ هذه الآية الكريمة يفهم منها أنّ الفشل أدّى إلى التّنازع في الأمر . قال تعالى(٣) : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتّى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون ﴾ .

وإنّما كان في آية سورة آل عمران تقديم الفشل على التّنازع وتقديم التّنازع على العصيان لأنّ الآية الكريمة الّتي تتحدّث عن غزوة أُحُد تصوّر الصّفات المرغوب عنها المبنيّ بعضها على بعض والّتي أدّت الواحدة منها إلى السّيّئة الّتي تليها والمترتّبة عليها . أمّا آية سورة الأنفال فإنّها تنهى عن صفةٍ سيّئةٍ هي التّنازع لأنّها تؤدّى — لا سمح الله — إلى الفشل وذهاب الرّيح .

وإذا كان التّنازع يؤدّى إلى الفشل بمعنى الضّعف وما يترتّب عليه من جبنٍ وخوف فإنّ هذه الصّفات السّيّئة المبيّنة لمعنى الفشل تفضى إلى ذهاب الرّيح . والمراد

---

(١) سورة النّازعات ١ .

(٢) سورة آل عمران ٢٦ .

(٣) سورة آل عمران ١٥٢ .

ريح النّصر . وحينما تذهب ريح النّصر فذلك معناه الهزيمة ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم .

ويلاحظ بشأن أسوأ نتائج التّنازع في القول : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ أنّ الآية الكريمة تستعمل لفظة ريح . وإنّ من أهمّ سمات الرّيح التّماسك والالتئام ومن هنا جاءت لفظة ريح في القرآن الكريم بصيغة المفرد مع العذاب بسبب تماسك الرّيح والتئامها وشدّتها ، ومن هنا جاءت لفظة الرّياح في القرآن الكريم بصيغة الجمع مع الرّحمة ونزول الغيث لأنّ نزول الماء من المزن ثمرةٌ لرياحٍ مختلفة . وإنّما تجيء في القرآن لفظة الرّيح مع الرّحمة بسبب وجود القرينة الصّارفة للرّيح من العذاب إلى الرّحمة . وهذه القرينة تجيء في الآية الكريمة من سورة يونس[1] متمثّلةً في وصف الرّيح بأنّها طيّبة قال تعالى : ﴿ هو الّذى يسيّركم في البرّ والبحر حتّى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريحٍ طيّبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كلّ مكانٍ وظنّوا أنّهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدّين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين ﴾ ومن البيّن أنّ الرّيح في القول من آية سورة الأنفال : ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ ليست على الحقيقة ، فإنّ لفظة ريح تستعار من أجل أخذ الحذر من التّنازع والفشل فإنّ ثمرتهما النّكدة دائمًا وأبدًا ذهاب الرّيح في أقصى سرعة وضياع النّصر في لمح البصر وذلك على غرار النّصر الّذى ذهب في غزوة أحد آخر لحظة . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تجعل الرّيح بمعنى النّصر هي الّتى تذهب . وإنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : إنّكم أيّها المؤمنون بحاجةٍ إلى تستعينوا بالله تعالى وتتوكّلوا عليه جلّ وعلا وحده لا شريك له وتثبتوا أمام الأعداء وتذكروا الله تعالي ذكرًا كثيرًا وتطيعوا الله تعالى وتطيعوا رسوله ﷺ وتخطبوا ودّ النّصر وتستميلوا نسائمه إذا هبّت وريحه إذا جرت بترك التّنازع الّذى يؤدّى إلى الفشل وذهاب الرّيح بسرعةٍ وقوّة .

---

(١) الآيـة ٢٢ .

وتتوّج الشّروط الأربعة بالشّرط الخامس الّذى يكاد يكون آخر الشّروط : ﴿ واصبروا إنّ الله مع الصّابرين ﴾ وإنّ تعقيب الآية الكريمة على شرط الصّبر دليلاً على أهمّيّته يذكّرنا بما جاء في الآية الكريمة السّابقة من تعليق الفلاح بشرط ذكر الله تعالى دليلاً على أهمّيّة هذا الشّرط الثّاني بالقياس إلى الشّرط الأوّل وهو الثّبات . قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلّكم تفلحون ﴾ .

ومن البيّن أنّ شرط الصبر الخامس هو شرط الثّبات الأوّل وزيادة وتفسير ذلك أنّ الثّبات يتعلّق أساسًا بأوّل المعركة أمّا الصّبر فإنّه يلازم المعركة من أوّلها إلى آخرها هذا إلى أنّ كمّيّة الصّبر تأخذ في الزّيادة والارتفاع حتّى النّصر بإذن الله تعالى وذلك بسبب ما يتعرّض له الجيش ما دامت المعركة مستمرّة من زيادة قتل وبتر وجرح وما إلى ذلك من مواقف مهولة . ومن البيّن أنّ الصّفات الأربع السّابقة يعتبر الصّبر عمودها الفقريّ لأنّ الصّبر ثلاثة على البلاء وعلى الطّاعة وعن المعصية ، وهذه الصّفات للصّبر موجودةٌ في الشّروط الأربعة السّابقة . وإنّ الثّبات وذكر الله تعالى والطّاعة وعدم التّنازع أفضى كلّ ذلك إلى الصّبر شرطًا أساسيًّا كي تؤتي الشّروط السابقة أكلها بإذن الله تعالى .

وإنّ الجزئيّة الكريمة الأخيرة من القول في الآية الكريمة : ﴿ واصبروا إنّ الله مع الصّابرين ﴾ تريد أن تقول إنّ النّصر إنّما هو من عند الله تعالى وحده لا شريك له ، وإنّه يشترط الصّبر كي يكون جلّ وعلا مع المؤمنين المجاهدين في سبيله جلّ وعلا الصّابرين ، وإنّ عليكم أيّها المؤمنون ألاّ تغفلوا طرفة عين عن الاستعانة بالله تعالى والتّوكّل عليه جلّ وعلا وحده لا شريك له . إنّ عليكم أيّها المؤمنون أن تقدّموا الأدلّة على أنّكم تجاهدون فيه جلّ وعلا بتحقيق الشّروط المذكورة كي يهديكم جلّ وعلا سبله وكي يكون عزّ وجلّ معكم بالتوجيه والتّسديد ، وبالنّصر والتّأييد .

وإذا كانت الشّروط المذكورة ينبغي على المؤمنين أن يتحلّوا بها إذا لقوا الفئة الكافرة فإنّ ثمّة شرطًا مهمًّا ينبغي تحقّقه في المجاهدين بين يدي لقاء الأعداء بأن يريدوا بأعمالهم الصّالحة وجه ربّهم الأعلى جلّ وعلا . وعن هذا الشّرط تحدّثت .

الآيـــة رقـــم (٤٧)

قـال تعـالى : ﴿ ولا تكونـوا كـالّذين خرجـوا مـن ديـارهم بطـرًا ورئـاء النّـاس ويصدّون عن سبيل الله . والله بما يعملون محيط ﴾ .

تحذّر الآية الكريمة الّذين آمنوا من عدم تحقّق الشّرطين اللّذين ينبغى تحقّقهما كـي يتفضّل الله تعالى بقبول الأعمال . وهذان الشّرطان هما أن يكون العمل خالصًا لله تعالى صوابًا على سنّة المصطفى ﷺ : « فإنّ العمل إذا كان خالصًا و لم يكن صوابًـا لم يُقْبل ، وإذا كان صوابًا و لم يكن خالصًا لم يُقْبَل ، حتّـى يكـون خالصًـا صوابًـا . والخالص أن يكـون لله . والصّـواب أن يكـون علـى السّـنّة »[1] ويكـون فـى الآيـة الكريمة التّحذير فى هيئة النّهي عن أن يكونوا مثل كفّار مكّة الّذين أهانهم الله تعالى فى بدر . وأحد الشّرطين يتحقّق فـى القـول : ﴿ ولا تكونـوا كـالّذين خرجـوا مـن ديارهم بطرًا ورئاء النّاس ﴾ ومـن البيّـن أنّ هـذا الشّـرط يتعلّـق بفسـاد النّيـة وسـوء القصد . إنّ الآية الكريمة تنهى الّذين آمنوا أن يكونوا فى خروجهم للقتال مثل كفّار مكّة الّذين خرجوا من ديارهم وهي مكّـة المكرّمـة حينمـا أرسـل إليهـم أبـو سـفيان رسولا باعتراض المصطفى ﷺ قافلتهم فهبّوا لنجـدة العير وإنقـاذ القافلـة . وحينمـا كانوا بالجُحفة[2] وهي قريةٌ بمحاذاة رابغ الّتى تقع على ساحل البحر الأحمر وصلهـم رسولٌ آخر من أبى سفيان بنجاة العير ويأمرهم بالرّجعة . فماذا كان موقـف كفّـار مكّة ؟ بطر النّعمة ؟ وقلّة القيام بحقّهـا ، وامتـلاء النّفـس بالكبر والغطرسـة وازدراء الآخرين واحتقـارهم . كمـا كـان موقفهـم الرّيـاء والحِـرْص علـى السُّـمعة وحسـن الأُحدوثة . ومن البيّن أنّ قلوب الكافرين ونفوسهم غير موصولة بالله تعالى . ويمثّـل أبو جهلٍ هؤلاء النّاس فإنّه بـدلاً مـن أن يعـود أدراجـه يقـول[3] : « والله لا نرجـع

---

(١) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لابن تيمية ٢٧ .

(٢) تفسير الطّبري ١٢/١٠ .

(٣) تفسير الطّبري ١٢/١٠ وتفسير ابن كثير ٣١٧/٢ .

حتّى نرد بدرًا ، وكان بدرٌ موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوقٌ كلّ عام ، فنقيم عليه ثلاثًا وننحر الجزر ونطعم الطّعام ونُسْقَى الخمور وتَعْزِف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا فامضوا » ومن البيّن أنّ البطر فى القول : ﴿ ولا تكونوا كالّذين خرجوا من ديارهم بطرًا ﴾ وهو بمعنى دفع الحقّ واحتقار الآخرين يتعلّق بورم النّفس الدّاخليّ الّذى يصحّ أن يعبّر عنه بالكِبْر . ومن البيّن كذلك أنّ مراءاة النّاس بزيّهم وأموالهم وكثرة عددهم وشدّة بطانتهم وذلك معنى القول : ﴿ ورئاء النّاس ﴾[1] يتعلّق بورم النّفس الخارجيّ الّذى يصحّ أن يعبّر عنه بالفخر . ويصحّ أن يقال إنّ البطر أقرب إلى كون حظّ صاحبه منه هو الأكبر فهو أقرب إلى كونه لازمًا وأنّ الرّياء أقرب إلى كون حظّ الآخرين منه هو الأكبر فهو أقرب إلى كونه متعدّيًا .

وأمّا آخر الشّرطين فإنّه يتحقّق فى القول : ﴿ ويصدّون عن سبيل الله ﴾ إنّ كفّار مكّة تجاوزوا الكفر إلى الصّدّ عن سبيل الله . إنّهم يتّجهون إلى بدرٍ من أجل قتال المسلمين رغم علمهم منذ أن كانوا بالجُحفة ، وما أبعدها من بدر ، بأنّ العير قد نجت وأنّ السّبب الّذى من أجله قد خرجوا من مكّة قد زال فينبغى أن يزول المسبَّب وهو مواصلة السّير إلى بدرٍ من أجل قتال المسلمين .

إنّ على المسلمين أن يتحقّق فى أعمالهم الشّرطان الاثنان كي يتفضّل الله تعالى بقبول تلك الأعمال والإثابة عليها : صلاح النّيّة وصلاح العمل .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ ومن البيّن تعلّق التّذييل بالشّرط الثّانى وهو الصّدّ عن سبيل الله تعالى ، أي العمل . وقد لاحظنا من قبل فى أكثر من موضع تعلّق التّذييل بالشّرط الثّانى ، وبذلك تسير الآية الكريمة فى هذه الصّفة مع غيرها من الآيات الكريمات . وحينما نتبيّن أنّ التّذييل من قبل قد تعلّق بأهمّ الشّرطين وهو الثّانى يصحّ أن نتبيّن هذا المعنى بشأن الشّرط الثّانى الّذى يتعلّق

---

(١) تفسير الطّبرى ١٣/١٠ .

بالعمل ، والّذى يتجاوز مرحلة الكفر إلى مرحلة الصّدّ عن سبيل الله تعالى . إنّ سوء النيّة والقصد أعقبه سوء العمل وسوء القول كذلك بطبيعة الحال .

من الآية الكريمة ومن الآيات الكريمات السّابقات يتبيّن تعلّق المعانى بالقول فى الآية الكريمة الثّانية والأربعين : ﴿ وإنّ الله لسميعٌ عليم ﴾ فالله سبحانه وتعالى سميعٌ عليمٌ إذ يُرى المصطفى ﷺ فى منامه المشركين قليلاً لتقوى قلوب المؤمنين ، وإذ يُرى جلّ وعلا المؤمنين المشركين قليلاً إذ التقى الجمعان فى بدرٍ للسّبب نفسه ، وإذ زيّن الشّيطان الرّجيم لكفار مكّة سوء عملهم وهذا المعنى أشارت إليه .

الآيــة رقــم (٤٨)

قال تعالى : ﴿ وإذ زيّن لهم الشّيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من النّاس وإنّى جارٌ لكم . فلمّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنـى برىءٌ منكـم إنّى أرى ما لا ترون إنّى أخاف الله . والله شديد العقاب ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سميعٌ عليم إذ زيّن الشيطان الرّجيـم لكفـار مكّـة الّذين يصدّون عن سبيل الله تعالى أعمالهم القبيحة فرأوها حسنةً ومنها قتال المصطفى ﷺ والمؤمنين . ولمّا كانت وسائل إغراء اللّعين وإغوائه لا حصر لها فقد تجاوز اللّعين التّزيين الّذى يرتبط بالعين فى العادة إلى وسائله الأخرى الّتى تتسرّب إلى النّفس عن طريق المسارب الأخرى . وممّا يدلّ على أنّ تزيين الشّيطان سوء العمل يـترتّب عليه رؤية العمل السّيّئ حسنًا قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة فاطر(١) : ﴿ أفمـن زُيّـن لـه سوء عمله فرآه حسنًا فإنّ الله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . إنّ الله عليمٌ بما يصنعون ﴾ .

ومن البيّن أنّ فى صدر الآية الكريمة نصًّا على ثلاثٍ من الأكذوبات صدرت من الشّيطان الرّجيم إلى المشركين قبل الالتحام الفعليّ للجيشين . وهذا هو صدر الآية

---

(١) الآيــــة ٨ .

الكريمة : ﴿ وإذ زيّن لهم الشّيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من النّاس وإنّى جارٌ لكم ﴾ .

ومن البيّن كذلك أنّ القول : ﴿ وإذ زيّن لهم الشّيطان أعمالهم ﴾ يعنى أنّ الشّيطان الرّجيم أدخل على نفوس كفّار مكّة الاطمئنان بالإيهام بأنّ أعمالهم الّتى يقومون بها ضدّ الإسلام بما فى ذلك قتال المسلمين فى بدرٍ أعمالٌ حسنة ينبغى أن تكون باعثةً لهم على الرّضا والسّعادة .

ولمّا كان الّذى زُيّن له سوء عمله فرآه حسنًا يعلم فى أعماقه أنّ كون العمل حسنًا فى ذاته لا يكفى لتحقيق النّصر وحينما لا يكون ثمّة النّصر فى القتال يكون معنى ذلك الهزيمة ، فإنّ اللّعين يزيل ما سَبَقَ إلى رُوع كافرى مكّة واستقرّ فى أعماق نفوسهم من مثل هذا الهاجس . وإنّ الآية الكريمة تشير إلى هذا المعنى الثّانى فى القول عن اللّعين : ﴿ وقال لا غالب لكم اليوم من النّاس ﴾ والمعنى أنّ كفّار مكّة لا غالب لهم يوم بدرٍ من النّاس ، أي لا غالب لكم اليوم من بنى آدم فاطمئنّوا وأبشروا[(١)] ويدخل المسلمون فى النّاس بطبيعة الحال .

ولمّا كان كفّار قريش الّذين زيّن لهم الشّيطان أعمالهم وأوهمهم أنّهم لا غالب لهم يوم بدرٍ من النّاس يخشون أن يساعد المصطفى ﷺ والمؤمنين فى القتال أعداؤهم بنو بكر فإنّ الشّيطان الرّجيم يزعم لكفّار مكّة أنّه جارٌ لهم وأنه مجيرهم ومانعهم من بنى بكر فعليهم أن يطمئنّوا من جانب مساعدة أعدائهم للنّبيّ ﷺ وأن يوجّهوا كلّ ما عندهم من طاقة إلى حرب المصطفى ﷺ والمؤمنين . وإلى هذا المعنى الثّالث أومأ القول على لسان الرّجيم فى الآية الكريمة : ﴿ وإنّى جارٌ لكم ﴾ عن عروة بن الزّبير قال : لمّا أجمعت قريش المسير ذكرت الّذى بينها وبين بنى بكر ، يعنى من الحرب . فكاد ذلك أن يثبّطهم ، فتبدّى لهم إبليس فى صورة سراقة بن جُعْشُم المُدْلجيّ وكان من أشراف بنى كنانة فقال : أنا جارٌ لكم من أن تأتيكم كنانة بشيءٍ تكرهونه فخرجوا سراعًا[(٢)] وعن السّدّى قال : أتى المشركين إبليس فى صورة سراقة بن

---

(١) تفسير الطّبري ١٠/١٥ . (٢) تفسير الطّبري ١٠/١٤ وتفسير ابن كثير ٢/٣١٧ .

مالك بن جُعْشُم الكنانيّ الشّاعر ثمّ المدلجـيّ فجـاء علـى فـرس فقـال للمشـركين لا غالب لكم اليوم من النّاس فقالوا ومن أنت ؟ قال : أنا جاركم سراقة وهؤلاء كنانة قد أتوكم[١] وعن ابن عبّاس قال : جاء إبليس يوم بدرٍ فى جندٍ مـن الشّـياطين معـه رايته فى صورة رجلٍ من بنى مدلج ، فى صورة سراقة بن مالك بن جعشـم . فقـال الشّيطان للمشركين لا غالب لكم اليوم من النّاس وإنّى جارٌ لكم[٢] .

ومن البيّن أنّ هذا المعنى الثّـالث مـترتّبٌ علـى المعنـى الثّـانى ، وأنّ المعنـى الثّـانى مَترّتبٌ على المعنى الأوّل .

وما الّذى يلاحظ على شقّ الآية الكريمة الآخر ؟ يلاحظ عليه أنّه يشـتمل علـى ثلاثة معانٍ هو الآخر وأنّ كلّ معنًى ينقض المعنى المتعلّـق بـه فـى شـقّ الآيـة الكريمـة الأوّل . قال تعالى : ﴿ فلمّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنّى بـرىءٌ منكـم إنّى أرى ما لا ترون إنّى أخاف الله ﴾ .

﴿ فلمّا تراءت الفئتان ﴾ أي تقاربتا وتقابلتـا حتّـى صـارت كـلّ واحـدةٍ منهمـا بحيث تتمكّن من رؤية الأخرى وتتمكّـن الأخـرى مـن رؤيتهـا[٣] : ﴿ نكـص علـى عقبيه ﴾ ورجع اللّعين القهقرى على قفاه هاربًا[٤] ورجع مدبرًا[٥] وإنّما فعل اللّعـين ما فعل وقال ما قال حينما رأى الملائكة . رُوِيَ أنّ رسول الله ﷺ قال : مـا رؤي إبليس يومًا هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يـوم عرفـة ، وذلـك ممّـا يرى من تنزيل الرّحمة والعفو عن الذّنوب ، إلاّ ما رأى يوم بدر . قالوا : يـا رسـول الله ، وما رأى يوم بدر ؟ قال : أما إنّه رأى جبريل يزع[٦] الملائكـة[٧] وعـن بعـض بنى ساعدة قال : سمعت أبا أُسَيْد مالك بن رَبيعة بعـد مـا كـفّ بصـره يقـول : لـو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصرى لأخبرتكم بالشّعب الّذى خرجت منه الملائكـة لا أشكّ ولا أتمارى . فلمّا نزلت الملائكة ورآها إبليس وأوحى الله إليهـم : ﴿ أنّـى

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٤/١٠ . (٢) تفسير الطّبري ١٥/١٠ .
(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : « رأى » ٢٠٩ .
(٤) تفسير الطّبري ١٥/١٠ . (٥) تفسير الطّبري ١٥/١٠ وتفسير ابن كثير ٣١٧/٢ .
(٦) يزع : يقود . (٧) تفسير الطّبري ١٥/١٠ وتفسير ابن كثير ٣١٨/٢ .

معكم فثبّتوا الّذين آمنوا ﴾ وتثبيتهم أنّ الملائكة كانت تأتي الرّجل في صورة الرّجل يعرفه فيقول له : أبشر فإنّهم ليسوا بشيء ، والله معكم ، فكرّوا عليهم . فلمّا رأى إبليس الملائكة ﴿ نكص على عقبيه وقال إنّي بريءٌ منكم إنّي أرى ما لا ترون ﴾ وهو في صورة سراقة . وأقبل أبو جهل يحضّض أصحابه ويقول : لا يهولنّكم خِذْلان سراقة إيّاكم فإنّه كان على موعدٍ مع محمّد وأصحابه(١) .

وبشأن نقض كلّ حبّةٍ من المعاني في شقّ الآية الكريمة الثّاني حبّةً من المعاني في شقّ الآية الكريمة الأوّل هو ـ والله تعالى أعلم ـ على النّحو التّالي .

إنّ القول في الشّقّ الثّاني : ﴿ نكص على عقبيه ﴾ يتعلّق بالقول في الشّقّ الأوّل : ﴿ وإنّي جارٌ لكم ﴾ .

وإنّ القول بعد ذلك في الشّقّ الثّاني : ﴿ وقال إنّي بريءٌ منكم ﴾ يتعلّق بالقول في الشّقّ الأوّل : ﴿ وقال لا غالب لكم اليوم من النّاس ﴾ .

وإنّ القول بعد ذلك في الشّقّ الثّاني : ﴿ إنّي أرى ما لا ترون ﴾ يتعلّق بالقول في الشّقّ الأوّل : ﴿ وإذ زيّن لهم الشّيطان أعمالهم ﴾ .

وبهذا يكون اللّعين في القول على لسانه في الشّقّ الآخر من الآية الكريمة قد نكص على عقبيه ليس برجليه فقط وإنّما بلسانه أيضًا فها هو ذا اللّعين يكرّ على معانيه الثّلاثة في صدر الآية الكريمة فينقضها الواحد تلو الآخر مبتدئًا في رجوعه القهقرى بالأقرب فالأقرب ومن هنا نقض المعنى الأوّلُ في الشّقّ الآخر من الآية الكريمة المعنى الثّالثَ في الشّقّ الأوّل من الآية الكريمة ، ثمّ نقض الثّاني الثّاني ، ثمّ نقض الثّالث الأوّل .

إنّ المعنى الثّالث من الشّقّ الأوّل من الآية الكريمة في القول على لسان اللّعين : ﴿ وإنّي جارٌ لكم ﴾ نقضه اللّعين ليس بالقول هذه المرّة إنّما بالفعل . وإلى ذلك أشار قول الحقّ جلّ وعلا في صدر الشّقّ الآخر من الآية الكريمة : ﴿ فلمّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه ﴾ وبذلك يكون اللّعين قد نقض المعنى الثّالث بالرّجوع

---

(١) تفسير ابن كثير ٣١٨/٢ .

القهقرى حسًّا ومعنى . أمّا الرّجوع القهقرى حسًّا فبنكوص اللّعين على عقبيه .
وأمّا الرّجوع القهقرى معنًى فبالعودة والكرّ على المعنى الثّالث فى الشّقّ الأوّل ونقض ذلك المعنى الآخر القريب ابتداءً عن عمد وسابق إصرار .

والعقب مؤخّر الرّجل[1] وإنّ القول : ﴿ نكص على عقبيه ﴾ يذكّرنا بمجىء العقب فيه فى صيغة المثنّى بالصّيغة ذاتها فى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة آل عمران[2] : ﴿ وما محمّدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرّسل . أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئًا وسيجزى الله الشّاكرين ﴾ .

وبشأن صيغة التّثنية فى آية سورة آل عمران سبق لنا فى دراستنا المتأمّلة للسّورة الكريمة[3] أن أشرنا إلى أنّ صيغة التّثنية هنا يصحّ أن تنبّه إلى أنّ المنقلِب على عقبيه قد صمّم على الانقلاب على العقب ، وها هوذا يُتْبِع الخطوة الأولى الخطوة الثّانية ، دليلاً على أنّ الخطوة إذا تبعتها الثّانية فإنّ الثّالثة لاحقةٌ بهما وكذلك الرّابعة والخامسة وهكذا . إنّ صيغة التّثنية هى الّتى دلّت على التّصميم بمعنى أنّ صيغة المفرد لا تدلّ بالضّرورة على التّصميم لأنّ من أخّر قدمًا قد يقدّم أخرى دون أن يعتمد على إحداهما وهذا هو المتردّد الّذى قد يعدل بالكلّيّة عن الرّجوع القهقرى .

وإنّ ما قيل بشأن الانقلاب على العقبين فى حقّ الكافر يقال عن النّكوص على العقبين فى حقّ اللّعين الّذى اتّخذه الكافر وليًّا له من دون الله تعالى وبذلك يكون عمل الكافر واللّعين واحدًا لأنّ كلاًّ منهما ولىٌّ للآخر .

والحقيقة أنّا حينما نقارن بين المعانى الثّلاثة فى كلٍّ من الشّقّين نتبيّن لطيفةً . وتفسير ذلك أنّ المعنى الأوّل فى الشّقّ الأوّل يتعلّق بتزيين الشّيطان أعمال الكافرين وأنّ المعنى الأوّل فى الشّقّ الآخر يتعلّق بنكوص اللّعين على عقبيه . ووراء ذلك يختصّ المعنيان الثّانى والثّالث فى كلٍّ من الشّقّين بالقول على لسان اللّعين .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « عقب » ٣٤٠ . (٢) الآية ١٤٤ .
(٣) تأمّلات فى سورة آل عمران ٤٢٩ .

وهذا هو المعنى الثّانى فى الشّقّ الثّانى : ﴿ وقال إنّى برىءٌ منكم ﴾ وهو يقابل المعنى الثّانى فى الشّقّ الأوّل : ﴿ وقال لا غالب لكم اليوم من النّاس ﴾ إنّ اللّعين بعد أن نكص على عقبيه يقول للمشركين إنّى برىءٌ منكم ومن إقدامكم على قتال النّبيّ ﷺ والمؤمنين . وبذلك نقض اللّعين قوله السّابق للمشركين لا غالب لكم يوم بدرٍ من النّاس أجمعين وفيهم المصطفى ﷺ والمؤمنون .

وهذا هو المعنى الثّالث فى الشّقّ الثّانى : ﴿ إنّى أرى ما لا ترون ﴾ وهو يقابل المعنى الأوّل فى الشّقّ الأوّل : ﴿ وإذ زيّن لهم الشّيطان أعمالهم ﴾ إنّ اللّعين يقول للمشركين بصريح اللّفظ إنّه يرى الملائكة الّذين لا يراهم المشركون وبذلك ذهب تزيين اللّعين للمشركين سوء أعمالهم أدراج الرّياح .

ومن البيّن أنّ المعنى الثّانى على لسان اللّعين فى القول : ﴿ وقال إنّى برىءٌ منكم ﴾ أقوى من نكوصه على عقبيه فى القول : ﴿ فلمّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه ﴾ وأنّ المعنى الثّالث على لسان اللّعين فى القول : ﴿ إنّى أرى ما لا ترون ﴾ أقوى من المعنى الثّانى ومن المعنى الأوّل بطريق الأحرى والأولى . وكأنّ ثمّة تدرّجًا فى المعانى واتّجاهًا نحو الأقوى . وإنّ المعنى المترتّب على المعنى الثّالث وذلك فى القول : ﴿ إنّى أخاف الله ﴾ أقوى المعانى الأربعة لأنّه يبيّن الخوف الأكيد من الله تعالى من قِبَل اللّعين الكذوب بطبعه بشأن العباد .

ومن الأدلّة على قوّة المعنى الرّابع الأكبر من قوّة كلّ معنًى سابق أنّ هذا المعنى الرّابع يعقبه التّعقيب وذلك على غرار هذه الصّفة الّتى جاءت فى هذا القسم من السّورة أكثر من مرّة وذلك حينما يرتبط التّعقيب بأقرب معنًى إليه . جاء هنا القول : ﴿ إنّى أخاف الله . والله شديد العقاب ﴾ وجاء فى الآية الكريمة الخامسة والأربعين القول : ﴿ واذكروا الله كثيرًا لعلّكم تفلحون ﴾ وجاء فى الآية الكريمة السّادسة والأربعين القول : ﴿ واصبروا . إنّ الله مع الصّابرين ﴾ وجاء فى الآية الكريمة السّابعة والأربعين القول : ﴿ ويصدّون عن سبيل الله . والله بما يعملون محيط ﴾ .

ومن البيّن بشأن الآية الكريمة الّتى نحن بصددها أنّ أقوى المعانى متعلّق بخوف الله تعالى الشّديد العقاب .

وكما كان للمشركين موقفٌ مناوئٌ للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد كان من المنافقين الّذين كانوا آنذاك فى المدينة وفيما حولها من الأماكن وإلى ذلك أشارت .

الآيـــة رقـــم (٤٩)

قال تعالى : ﴿ إذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرضٌ غرّ هؤلاء دينهم . ومن يتوكّل على الله فإنّ الله عزيزٌ حكيم ﴾ .

إنّ الله سبحانه وتعالى سميعٌ عليمٌ إذ يُرى جلّ وعلا المصطفى ﷺ المشركين فى منامه قليلاً ، وإذ يُرى جلّ وعلا المؤمنين المشركين قليلاً حينما التقوا فى ميدان المعركة ، وإذ زين الشّيطان الرّجيم للمشركين سوء أعمالهم ، وإذ يقول المنافقون(١) والّذين فى قلوبهم مرض الشّكّ فى الإسلام والارتياب غرّ هؤلاء المؤمنين المغامرين دينهم وخدعهم عن معرفة حقيقة أقدارهم . إنّهم وهم القليلو العدد والعدّة يريدون أن يقاتلوا بإيمانهم جميع النّاس ويحاربوا بإسلامهم قريشًا وسائر العرب . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن المنافقين الّذين كانوا موجودين آنذاك فى المدينة المنوّرة وليس فى مكّة المكرّمة . والمعروف أنّ المنافقين كافرون على الحقيقة . وفرق ما بين المشركين والمنافقين أنّ المشركين عبّروا عن شركهم وكفرهم فى حين عجز المنافقون عن هذا التّعبير بسبب ضعفهم وقوّة المسلمين . وبهذا يتبيّن أنّه من الطّبيعيّ أن يظهر الكفر علانيةً فى مكّة المكرّمة بسبب قوّة الكافرين وضعف المؤمنين وأنّه من الطّبيعيّ أن يظهر النّفاق فى المدينة المنوّرة بسبب قوّة المؤمنين وضعف الكافرين .

إنّ المنافقين يستزلّهم الشّيطان الرّجيم كما استزّل المشركين ومن مظاهر ذلك القول الّذى جرى على لسانهم باغترار المؤمنين بدينهم وتورّطهم فى قتال من هو

---

(١) انظر تفسير الطبرى ١٠/١٥ .

أكثر منهم عددًا وعدّة . وبما أنّ المنافقين ليس فى دائـرة معرفتهـم التّوكّـل علـى الله تعالى العزيز الحكيم الّذى لا يأتى النّصر إلاّ منه جلّ وعلا فإنّ الآية الكريمة فى شقّها الآخر تشير إلى هذه الحقيقة وتنوّه بها وتحثّ عليها . إنّ من يتوكّـل علـى الله تعـالى فإنّ الله سبحانه وتعالى هو العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعـه الّـذى يعزّ مـن يشـاء ويذلّ من يشاء ، ينصر مـن يشـاء ويهـزم مـن يريـد . وإنّ الّذيـن يعزّهـم الله تعـالى وينصرهم هم المتوكّلون على الله تعالى وحده لا شريك له بعـد الأخـذ بالأسـباب . إنّ المصطفى ﷺ هـو زعيـم هـذه الفئـة المؤمنـة المتوكّلـة علـى الله تعـالى الآخـذة بالأسباب وقد نصر الله تعالى المؤمنين فى بدرٍ رغم قلّتهم وذلّتهم لأنّه هو جلّ وعلا العزيز الحكيم .

[٨]

« سنّة الله لا تتخلّف فى عذاب الكافرين وفى عدم زوال النّعمة إلاّ بعد كفرانها »

الآيات (٥٠ ـ ٥٤)

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟
مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

تحدّث القسم السّابق عن كفّار مكّة الّذين استزلّهم الشّيطان الرّجيم وعن المنافقين الّذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان . وقد هزم الله تعالى الكافرين فى بدرٍ شرّ هزيمة . وهم رمزٌ للكافرين فى كلّ زمانٍ ومكان . وإنّ هذا القسم التّالى يبيّن مآل الكافرين جاحدى النّعم وحالهم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحًا قبل الموت . إنّ ربّ العزّة يأخذ أخذ عزيزٍ مقتدرٍ كلاًّ من الكافرين الّذين يشركون مع الله تعالى سواه وكافري النّعم جاحديها . وكما يكون العذاب فى الأولى يكون العذاب ، بل العذاب الأشدّ ، فى الآخرة الّتى تبدأ بحضور أسباب الموت الكافرين .

إنّ السّياق يخاطب المصطفى ﷺ وكلّ مسلم وراء ذلك قائلاً : ولو ترى أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إذ يتوفى الّذين كفروا وأشركوا مع الله تعالى سواه ملائكة العذاب إذ ينزعون أرواحهم الخبيثة بشدّةٍ وعنفٍ من أجسامهم الخبيثة وإذ يضربون وجوههم الّتى أعرضوا بها عن الحقّ وأدبارهم الّتى استقبلوا بها الحق وإذ يقال لهم ذوقوا عذاب الحريق فى نار جهنّم . وجواب لو محذوف تقديره : لرأيت أمرًا فظيعًا . والجواب معروفٌ ولهذا حُذِف . أمّا السّبب فى العذاب الّذى بدأ بنزع الأرواح بعنف وبالضّرب على الوجوه والأدبار فهو ما قدّمته أيديهم وسائر أعضائهم وجوارحهم من فعلٍ سيّئٍ وقولٍ ونيّة دليلاً على كفرهم وإشراكهم مع الله تعالى سواه ، وعلى كفرانهم نعم الله تعالى العظيمة وآلاءه الجسيمة . إنّ دأب كفّار مكّة وشأنهم كدأب آل فرعون وأتباعه على الكفر والّذين من قبلهم . إنّهم جميعًا كفروا بآيات الله تعالى البيّنات وفى مقدّمتها فى حقّ كفّار مكّة تكذيب المصطفى ﷺ الّذى أوحى الله تعالى إليه القرآن الكريم ، وفى حقّ فرعون وقومه كفرهم بموسى عليه السّلام الّذى آتاه الله تعالى تسع آياتٍ وأنزل عليه التّوراة . إنّهم بسبب كفرهم أخذهم الله تعالى القويّ الشّديد العقاب . وما معنى تكذيب الكافرين رسل الله تعالى إليهم وإنكار الآيات البيّنات الّتى أيّدهم الله تعالى بها ؟ معنى ذلك اتّصاف القوم بكفران النّعم إضافةً إلى الكفر بالله تعالى . وأيّ كفرانٍ وراء كفران مشركى مكّة نعمة الله تعالى عليهم بإرسال خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ورحمة العالمين من بلدتهم مكّة المكرّمة ، وأيّ كفرانٍ وراء كفران آل فرعون نعمة الله تعالى عليهم بإرسال موسى عليه السّلام بين ظهرانَيْهم ؟ إنّ الله سبحانه وتعالى قضى بألاّ يغيّر جلّ وعلا نعمةً أنعمها على قومٍ بتحويلها نقمةً حتّى يغيّروا ما بأنفسهم من شكر لله تعالى واجبٍ عليهم إلى كفر فيأخذهم الله تعالى السّميع العليم الشّديد العقاب — إن شاء — أخذ عزيزٍ مقتدر . لقد اتّصف بكفران النّعم كفّار مكّة وآل فرعون والكافرون السّابقون وبذلك جمعوا بين الكفر بآيات الله وكفران النّعم فأخذهم ربّهم جلّ وعلا مربّيهم بنعمه وآلائه بسبب ذنوبهم أخذ

عزيزٍ مقتدر فأهلكهم . إنّ كفّار مكّة أخذهم الله تعالى بالعذاب فى بدر . وإنّ آل فرعون قد أغرقهم الله تعالى فى اليمّ . وإنّ الظّالمين السّابقين أخذهم الله تعالى بوسيلة العذاب الّتى خصّهم الله تعالى بها . وإنّ هذا هو مصير الظّالمين فى كلّ زمانٍ ومكان .

الآيـة رقـم (٥٠)

قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفّى الّذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، ووراء ذلك يتّجه الخطاب إلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة ، وتقول له : ولو ترى أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم وتنظر بعينيك إذ يتوفّى الّذين كفروا ملائكةُ العذاب وتستلّ بعنفٍ أرواحَهم عند الموت لرأيت أمرًا عظيمًا منكرًا فظيعا . إنّهم يضربون وجوههم وأدبارهم بمقامع من حديد ويقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق فى نار جهنّم الّتى تحرقكم حينما تدخلونها . أمّا سبب العذاب الّذى حلّ بهم ابتداءً بساعة الوفاة فتبيّنه .

الآيـة رقـم (٥١)

قال تعالى : ﴿ ذلك بما قدّمت أيديكم وأنّ الله ليس بظلاّم للعبيد ﴾ .

إنّ ذلك العذاب الموصول منذ استلال ملائكة العذاب بعنفٍ أرواح الكافرين إلى أن يدخلوا النّار وبئس القرار بسبب ما قدّمت أيديهم ومن أجل أنّ ربّ العزّة ليس بظلاّمٍ للعبيد بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة . وإنّما نسبت الأعمال الّتى قدّمها الكافرون إلى الأيدى لأنّ أكثر الأعمال إنّما تزاول بالأيدى . وهي أعمالٌ تقدّم فى الحياة الأولى حياة العمل ولا جزاء كي يثاب عليها المرء يوم القيامة إن كانت حسنة أو يعاقب عليها إن كانت سيّئة .

ولمّا كانت سنّة الله تعالى لا تتغيّر فإنّ ما صادفه كفّار مكّة ويصادفه الكافرون هو ذلك الّذى صادفه الكافرون السّابقون فقد أومأت إلى هذه السّنّة .

الآيــة رقــم (٥٢)

قال تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون والّذين من قبلهم . كفروا بآيات الله فـأخذهم الله بذنوبهم . إنّ الله قويٌّ شديد العقاب ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ دأب كفّار مكّة وعادتهم الّتـي استمرّوا عليهـا[١] وشـأنهم حتّى أخذهم الله تعالى فى بدرٍ أخذ عزيزٍ مقتـدر كـدأب آل فرعـون وقومه الّذين كانوا على دينه فكفروا بالله تعالى وكذّبوا موسى عليه السّلام ، وكـدأب المكذّبين من قبلهم .

إنّ كفّار مكّة كفروا بآيات الله تعالى وفى مقدّمتها القرآن الكريم الموحى به إلى المصطفى ﷺ وبدّلوا كفرًا نعمة الله تعالى بإرسال خير الأنام ﷺ إليهم كما كفر فرعون وآله بموسى عليه السّلام وبآياته التّسع الّتى خصّه الله تعالى بها ، وكما كفر المكذّبون السّابقون . إنّ الله سبحانه وتعالى أخذ الكافرين جميعًا أخـذ عزيـز مقتـدر كما جاء فى سورة العنكبوت[٢] قال عزّ من قائل : ﴿ فكلاًّ أخذنـا بذنبـه . فمنهـم من أرسلنا عليه حاصبًا ومنهـم مـن أخذتـه الصّيحة ومنهـم مـن خسـفنا بـه الأرض ومنهم من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمـون ﴾ إنّ قـوم لوطٍ عليه السّلام ــ مثلاً ــ أرسل الله تعالى عليهـم حاصبًـا[٣] وإنّ قـوم صالحٍ عليـه السّلام أخذتهم الصّيحة[٤] وإنّ قارون قـد خسـف الله تعـالى بـه وبـداره الأرض[٥] وإنّ فرعون وملأه الّذين جاء ذكرهم فى الآية الكريمـة قـد أغرقهـم الله تعـالى كمـا أغرق من قبل قوم نوحٍ عليه السّلام بالطّوفان .

إنّ الله سبحانه وتعالى القويّ الشّديد العقـاب هـو الّـذى أخـذ بـالعذاب أولئـك الكافرين . وكما اتّصف أولئك الّذين أهلكهـم الله بـالكفر اتّصفـوا بـالكفران ، أي

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « دأب » ١٧٤ . (٢) الآية ٤٠ .
(٣) انظر مثلاً الآية ٣٤ من سورة القمر . (٤) انظر مثلاً الآية ٣١ من سورة القمر .
(٥) انظر الآية ٨١ من سورة القصص .

بكفران النّعم . إنّ أولئك الكافرين كفروا بنعم الله تعالى الظّاهرة والباطنة الّتى أسبغها الله تعالى عليهم وفى مقدّمة هذه النّعم الهداية إلى دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به كلّ الرّسل الكرام ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بمحمّد بن عبد الله ﷺ خير الأنام . وإنّ الآية الكريمة التّالية تشير إلى الكفران فإلى .

الآية رقم (٥٣)

قال تعالى : ﴿ ذلك بأنّ الله لم يك مغيّرًا نعمةً أنعمها على قومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم ﴾ .

من البيّن ابتداء الآية الكريمة باسم الإشارة الدّالّ على البعد : « ذلك » وهو ذات اسم الإشارة الّذى ابتدأت به الآية الكريمة قبل السّابقة والّذى يشير فى الموضعين إلى العذاب الّذى يأخذ الله تعالى به الكافرين . لقد كان الكفر السّبب فى الإشارة إلى العذاب فى المرّة الأولى ، كما أنّ الكفران السّبب فى الإشارة إلى العذاب فى هذه المرّة الأخرى .

إنّ الآية الكريمة تقرّر بأنّ ذلك العذاب قد حلّ بالكافرين بسبب أنّ الله سبحانه وتعالى لم يك مغيّرًا ومبدّلاً نعمةً أنعمها وأسبغها على قومٍ بأن يجعلها نقمةً وعذابًا حتّى يغيّر القوم ما بأنفسهم بأن يبدّلوا نعمة الله تعالى كفرًا فلا يقومون بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على نعمه وآلائه بل يتّسمون بالكفران والنّكران . كما أنّ العذاب قد حلّ بالكافرين بسبب أنّ الله سبحانه وتعالى سميع ، هكذا فى صيغة المبالغة ، عليم ، هكذا فى صيغة المبالغة أيضًا ، فلا يغيب عنه جلّ وعلا صوت ، ولا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء .

وهذا المعنى الّذى تفصّله الآية الكريمة تومىء إليه هذه الآية الكريمة من سورة الرّعد(١) قال تعالى : ﴿ له معقّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقومٍ سوءًا فلا مردّ

---

(١) الآية ١١ .

له . وما لهم من دونه من وال ﴾ وسبق لنا فى أثناء دراستنا المتأمّلة لآية سورة الرّعد الكريمة(١) أن بيّنا أنّ هذه الجزئيّة الكريمة من آية سورة الرّعد : ﴿ إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ يفصّل معناها الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة الأنفال .

ومّما تفيده الجزئيّة الكريمة من آية سورة الرّعد بدلالة الالتزام والآية الكريمة من سورة الأنفال أنّ المسلمين الّذين يغيّر الله تعالى النّعمة عليهم بسبب كفرانهم لها يستطيعون بإذن الله تعالى أن يجتهدوا فى العمل على عودة النّعمة وذلك بتطبيق تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين وفى مقدّمة ذلك الشّكر لله تعالى سرًّا وعلانيةً على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة جلّ وعلا وقد قال عزّ من قائل(٢) : ﴿ وإذ تأذّن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابى لشديد ﴾ .

إنّ دأب كفّار مكّة فى الكفر والكفران كدأب آل فرعون والّذين من قبلهم الّذين أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر . إنّ كفّار مكّة بالإضافة إلى إشراكهم مع الله تعالى إيّاه كفروا أكبر نعم الله تعالى عليهم بإرسال الله تعالى منهم خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين بدين الإسلام الّذى لا يقبل الله تعالى دينًا سواه . وحينما كفر مشركو مكّة وبدّلوا نعمة الله تعالى عليهم كفرًا وغيّروا ما بأنفسهم غيّر الله تعالى عليهم بأن سلبهم نعمة بقاء المصطفى ﷺ بين ظهرانَيْهِم ، فأمره جلّ وعلا بالهجرة إلى المدينة المنوّرة حيث الأنصار الّذين وكّلهم الله تعالى مع إخوانهم المهاجرين برسالة الإسلام الّتى بعث الله تعالى بها خير الأنام محمّد بن عبد الله ﷺ . وفى هذا المعنى جاء قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأنعام(٣) : ﴿ أولئك الّذين آتيناهم الكتاب والحُكْمَ والنّبوّة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين ﴾ .

ولّما كان مشركو قريش قد جمعوا بين الكفر والكفران ، وكان الحديث قد عُنِيَ من ذى قبل بالكُفْر حتّى كان الحديث فى هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها عن

---

(١) تأمّلات فى سورة الرّعد ٨٢ — ٩٧ . (٢) سورة إبراهيم ٧ . (٣) الآية ٨٩ .

نعم الله تعالى وكفرانها فإنّ الآية الكريمة التّالية تواصل الحديث في كفران آل فرعون للنّعم من الله تعالى عليهم فإلى .

الآيـة رقـم (٥٤)

قـال تعـالى : ﴿ كـدأب آل فرعـون والّذين من قبلهـم . كذّبـوا بآيـات ربّهـم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون . وكلٌّ كانوا ظالمين ﴾ .

ومن البيّن وجه الشّبه بين الآية الكريمة وبين الآية الكريمة قبل السّابقة ، وهي كما عرفنا تتحدّث عن كفر مشركي مكّة وكفـر آل فرعـون والّذين مـن قبلهـم . جـاء هنالك القول : ﴿ كدأب آل فرعون والّذين من قبلهم . كفروا بآيات الله فـأخذهم الله بذنوبهـم . إنّ الله قـويٌّ شـديدُ العقـاب ﴾ وجـاء هنـا القـول : ﴿ كـدأب آل فرعون والّذين من قبلهم كذّبوا بآيات ربّهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعـون وكلٌّ كانوا ظالمين ﴾ .

ومن ألطف الأدلّة على العموم بشأن الآية الّتي تعقّب على الكفـر وتتحـدّث عـن أخـذ الله تعـالى لهـم بذنوبهـم مجيء لفـظ الجلالـة : ﴿ الله ﴾ وذلـك فـى القـول : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ والمعروف أنّ لفـظ الجلالـة ﴿ الله ﴾ يُسْتَعْمَل فـى القـرآن الكريم في مواقف العموم . ومن ألطف الأدلّة على الخصوص بشأن الآية الّتى تعقّب على كفران النّعم مجيء لفظ « الرّبّ » وذلك فى القول : ﴿ كذّبوا بآيات ربّهم ﴾ والمعروف أنّ لفظ الرّبّ ذو قـدرةٍ علىٰ التّنبيـه علـى تربيـة الله تعـالى عبـاده بـالنّعم والآلاء ، وأنّه يُسْتَعْمَلُ فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص . وحينما يأتى لفـظ الرّبّ فى الآية الكريمة الّتى تسبقها الآية الكريمة الّتى فيها النّصّ علـى نعـم الله تعـالى يكون فى ذلك النّعي الشّديد علـى كـافرى نعـم الـرّبّ الكريـم مربّـى عبـاده بنعمـه العظيمة وآلائه الجسيمة . وإنّ فى النّصّ على تكذيب كافرى النّعم آيات الرّبّ الـبرّ الرّحيم وذلك فى القول : ﴿ كذّبوا بآيات ربّهم ﴾ تنبيهًـا علـى السّـبب الّـذى مـن أجله كفر أهل مكّة وآل فرعون ومن قبلهـم نعـم الله تعـالى . إنّهـم كذّبـوا بآيـات

ربّهم جلّ وعلا . إنّ كفّار مكّة كذّبوا بالقرآن الكريم الّذى أوحاه الله تعالى إلى النّبيّ العظيم ﷺ . وإنّ فرعون وآله الّذين هم على دينه كذّبوا بالآيات التّسع الّتى خصّ الله تعالى بها موسى عليه السّلام والّتى نصّت عليها الآيات الكريمات من سورة الأعراف ١٠٧ و١٠٨ و١٣٠ و١٣٣ وهي العصا ، واليد ، والسّنون ، ونقصٌ من الثّمرات ، والطّوفان ، والجراد ، والقُمّل ، والضّفادع ، والدّم .

وإذا كانت الآية الكريمة قبل السّابقة قد أشارت إلى أخذ الله تعالى الشّديد العقاب الكافرين بآيات الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر فإنّ الآية الكريمة هنا تشير إلى إهلاك الله تعالى المكذّبين بآيات الله تعالى بسبب ذنوبهم ومنها كفران النّعم وأنواع الظّلم الّتى ارتكبوها فى حقّ أنفسهم وفى حقّ العبادة الّتى صرفوها عن الله تعالى الّذى يستحقّها وحده لا شريك له إلى ما لا يخلق شيئًا وهم يُخلَقون ولا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا .

وبما أنّ المشبّه به آل فرعون وهم أتباعه فقد كان فى هذه الآية الكريمة عودةٌ إلى ذكر آل فرعون للمرّة الثّانية والنّصّ على أنّ الله سبحانه وتعالى أغرقهم فعلى الكافرين المكذّبين الجاحدين للنّعم أن يأخذوا العظة والعبرة من العذاب الّذى أخذ الله تعالى به آل فرعون . إنّ مصير كلّ الظّالمين أن يأخذهم الله تعالى كما أخذ آل فرعون الظّالمين ، فعلى الظّالمين أن يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحًا وإلاّ كان العذاب أليمًا والأخذ شديدًا .

ويلاحظ أنّ المشبّه به هنا فرعون وآله ، وهو ذات المشبّه به فى غير ما موضعٍ من القرآن الكريم . ولا يخفى السّبب فى ذلك وهو وجه الشّبه القويّ بين كفّار مكّة من ناحية وفرعون وآله من ناحيةٍ أخرى . إنّ كلاًّ من الفريقين كذّب بواحدٍ من أولى العزم من الرّسل آتاه الله تعالى الكثير من الآيات البيّنات وفى مقدّمتها القرآن الكريم الّذى أوحاه الله تعالى إلى محمّد بن عبد الله ﷺ والتّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام . إنّ على كفّار مكّة أن يعيدوا النّظر فى موقفهم من الدّعوة إلى صراط الله تعالى الحميد وإلاّ فإنّ السّنّة ماضية والوعد لا يتخلّف .

[٩]

« الكافرون شرّ الدّوابّ ووجوب وفاء المؤمنين بالعهد وإعداد ما استطاعوا من قوّة »

الآيات (٥٥ ـ ٦٠)

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ
وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم
مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن
قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ
﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾
وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ
تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ
لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞

بسبب كفر أهل مكّة ومن شاكلهم من الكافرين السّابقين وكفرانهم نعم الله تعالى أخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدرٍ على نحو ما تبيّن من آيات القسم السّابق . وتدور آيات القسم التّالى هذا حول المؤمنين جند الله تعالى الّذين يسلّطهم الله تعالى على الكافرين الّذين هم شرّ ما يدبّ على الأرض من مخلوقات الله تعالى بسبب كفرهم وإصرارهم على الكفر واستمرائهم له والدّعوة إليه والصّدّ عن سبيل الله تعالى ورفضهم المطلق للإيمان . ومن الأدلّة على كونهم شرّ الدّوابّ وأحطّ من الأنعام نقضهم العهود الّتى أبرموها مع المصطفى ﷺ والمؤمنين عدد مرّات إبرام العهود دون أن يكون منهم وقتًا من الأوقات تقوى لله تعالى ومن عذابه جلّ وعلا بالدّخول فى دين الإسلام الّذى لا يرضى سبحانه وتعالى دينًا سواه . ومعروف أنّ التّقوى تتمثّل فى أولى مراحلها فى اتّقاء عذاب الله تعالى وتتمثّل فى آخر مراحلها فى هيئة الإحسان بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . إنّ

الكافرين فاتهم أولى مراحل التّقوى فكيف بآخرها . إنّ واجب المسلمين أن يكونوا دائمًا وأبدًا فى أكمل عدّة وأتمّ استعداد بحيث إنّهم حينما يلتقون بالمشركين للوهلة الأولى يكون من المسلمين حذقٌ فى لقائهم وإتقانٌ فى إيصال أبلغ الأذى إليهم فى ساعة الحرب وميدان القتال بحيث ينهزم المشركون بإذن الله تعالى شرّ هزيمة ، ويكونون نكالاً وعبرةً للآخرين ناقضى العهود من أمثالهم والمبيّتين نيّة الغدر المنتظرين أوّل فرصةٍ مواتية للغدر بالمؤمنين . إنّ البطش بالغادرين تشريدٌ لغيرهم ممّن وراءهم ومن خلفهم وعلى شاكلتهم من تبييت النيّة على الغدر والتربّص ، فلعلّهم يتذكّرون ويتّعظون وينضمّون إلى صفوف المسلمين . وبشأن المستمرّين فى خطئهم ، وقد بدرت منهم أمارات الغدر وطلائعه وعلاماته ، على القيادة المسلمة ، الّتى يخاطب السّياق إمامها وأسوتها الحسنة ﷺ ، أن تنبذ إلى أولئك الّذين يخافون غدرهم وخيانتهم عهدهم الّذى سبق لهم أن نبذوه نبذ النّوى أو النّعل دليلاً على هوانه . إنّ نبذ المؤمنين عهد المشركين إليهم وقد نبذوه من قبل كي يكونوا جميعًا على سواء في نبذ العهد وفى العلم بذلك النّبذ وبذلك يستوى الطّرفان فى العلم بأنّ كلّ فريقٍ حربٌ للآخر فلا يُتّهم المسلمون بالغدر ونقض العهود . ويقرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى لا يحبّ الخائنين ، ويهدّد الكافرين الّذين نجوا فى بدر – مثلاً – بأنّ عليهم ألاّ يظنّوا أنّهم بنجاتهم قد فاتوا الله سبحانه وتعالى فإنّهم لا يُعْجِزون الله تعالى بحالٍ من الأحوال فعليهم أن يستفيدوا من فترة الإمهال هذه بأن يعتنقوا دين الإسلام . ولّما كان الحقّ بحاجةٍ دائمًا إلى القوّة الّتى تحميه فقد أمر السّياق الّذين آمنوا بأن يعدّوا ما استطاعوا من قوّة ومن رباط الخيل ، والمجاهدين فى سبيل الله تعالى ، ومِنْ وسائل القتال المتطوّرة بتطوّر الأحوال مِنْ أجل إرهاب عدوّ الله تعالى والمؤمنين ومن أجل إرهاب آخرين غيرهم مستترين وراءهم لا يعلمهم المصطفى ﷺ والمؤمنون ولكنّ الله سبحانه وتعالى يعلمهم . ولّما كان إعداد العدّة بحاجةٍ إلى المال فإنّ السّياق يحثّ على الإنفاق فى سبيل الله تعالى ويعد بالثّواب الجزيل عليه يوم القيامة الّذى لا يُظلَم فيها أحد بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة .

الآيتـــان رقـــم (٥٥ و٥٦)

قال تعالى : ﴿ إنّ شرّ الـدّوابّ عنـد الله الّذيـن كفـروا فهـم لا يؤمنـون . الّذيـن عاهدت منهم ثمّ ينقضون عهدهم فى كلّ مرّةٍ وهم لا يتّقون ﴾ .

إنّ أوّل ما يلفت نظرنا بشأن الآية الكريمة الأولى مجيء لفظة الدّوابّ جمـع دابّـة . وممّا يلاحظ على لفظة الدّابّة أنّها من الدّبّ والدّبيب بمعنـى المشي علـى الأرض فـى حركةٍ أخفّ من المشي[1] ويستعمل الدّبّ والدّبيب فى الحيوان وفـى الحشرات أكثر ، ومن هنا كان المشي كالحيّة أو على اليدين والرّجلين كالطّفل دبًّا ودبيبًا . ومعـروفٌ أنّ هذه الهيئة ألصق بالحيوان ، ومن هنا غلبت لفظة الدّابّة على ما يُرْكب مـن الحيـوان ، وإن اختصّـت فـى التّعـارف بـالفَرَس[2] وممّـا يلفـت النّظر كذلـك أنّ لفظـة شـرّ ، وكذلك خير ، اسم تفضيل ، وتقديرهما تقدير أفعل منه نحو هذا شرّ من ذاك وخيرٌ من ذاك فهما مخفّفا أشرّ وأخير[3] .

وبهذا تنحط بالمشركين لفظة ﴿ الدّوابّ ﴾ إلى درك الأنعام ، وتنحط بهم لفظـة ﴿ شرّ ﴾ إلى درك من هم أضلّ من الأنعام سبيلاً . وهذا المعنـى عبّر عنـه بوضـوحٍ قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأعراف[4] : ﴿ ولقد ذرأنـا لجهنّـم كثـيرًا مـن الجـنّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بهـا ولهـم آذانٌ لا يسـمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ شرّ ما يدبّ على الأرض عند الله تعالى هم الّذين كفروا فهم لا يؤمنون . إنّ كفّار مكّة الّذين أذلّ الله تعالى معاطسـهم فـى بـدرٍ ومـن لـفّ لفّهم من الكافرين لا يؤمنون بالله تعالى ربًّا ، ولا بالإسلام دينـا ، ولا بمحمّـد ﷺ

---

(١) انظر معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : « دبّ » ٢٦٣/٢ .
(٢) انظر القاموس : « دبّ » ومفردات الرّاغب الأصفهانى : « دبّ » ١٦٤ .
(٣) انظر مثلاً مفردات الرّاغب الأصفهانى : « شرّ » ٢٥٧ و: « خير » ١٦٠ .
(٤) الآيـة ١٧٩ .

رسولاً ، ولا بالقرآن الكريم دستورا . وبما أنّهم يعملون ضدّ مصلحتهم فإنّهم بالمقارنة بالأنعام أحطّ مستوىً وأضلّ سبيلاً . إنّ الأنعام الّتى لا عقل لها تحرص بغريزتها على مصلحتها ، وإنّ الإنسان الكافر يعطّل عقله ويحرص على ما يضرّه ولا ينفعه . وإنّ من الأدلّة على انحطاك الكافرين عن مستوى الأنعام أنّهم لا يوفون بعهد الله تعالى وينقضون الميثاق . وإلى هذا المعنى أومأت الآية الكريمة الأخرى .

إنّ أولئك الكافرين ، ويشترك فى هذه الصّفة إضافةً إلى كافرى مكّة والمنافقين كافرو يهود ، ناقضو العهود مع المصطفى ﷺ كلّ مرّة أبرموا عهدًا ، ناكثو المواثيق كلّ مرّةٍ عقدوا موثقا . ويأتى على رأس هؤلاء النّاقضين للعهود من اليهود بنو قريظة الّذين يرى بعض العلماء أنّ الآية الكريمة تشملهم[(١)] إنّهم ينقضون العهود من ناحية ، ولا يتّقون الله تعالى ولا يجعلون وقايةً تحول بينهم وبين عذاب الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهى .

ولمّا كانت غزوة بدر فى السّنة الثّانية من الهجرة وكانت غزوة بنى قريظة إثر غزوة الخندق أو الأحزاب مباشرة وكانت كلٌّ منهما فى سنة خمسٍ من الهجرة[(٢)] فمن الجائز أن يقال إنّ الآية الكريمة تشير إلى كلّ الكافرين النّاقضين للعهود والمواثيق ، ويدخل فى أولئك يهود بنى قريظة وغيرهم من الكافرين الّذين يتّصفون بصفتهم ويقومون بعملهم . والمعروف أنّ كثيرًا من الكافرين نقضوا عهودهم مع المصطفى ﷺ والمؤمنين .

وإلى ما ينبغى أن يعامَلَ به هذا الفريق الخائن أشارت .

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبري ١٨/١٠ .

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٢٤٤/٣ وانظر تأمّلات فى سورة الأحزاب للمؤلّف ٢٢١ — ٢٦٣ وكان فتح قريظة فى ذى القعدة وصدر ذى الحجّة تفسير القرطبى ٥٢٢٤ .

الآيـــة رقـــم (٥٧)

قال تعالى : ﴿ فإمّا تثقفنّهم فى الحرب فشرّد بهم من خلْفهم لعلّهم يذّكّرون ﴾ .

لمّا كان الثّقْفُ الحِذقَ فى إدراك الشّىء وفعله[١] كان من متعلّقاته الظّفر . يقال : رَجُل ثَقِفٌ لَقِفٌ ، ورجلٌ ثِقْفٌ لِقْفٌ ، وذلك أن يصيب علم ما يسمعه علـى استواء . ويقال ثَقِفْتُ به إذا ظَفِرْت به[٢] إنّ الآية الكريمة تتحدّث عن ظفر المؤمنين بالخـائنين وانتصارهم عليهم بإذن الله تعالى فى الحرب وفى ميدان القتال . وإنّ الانتصار علـى الخصوم فى أوّل لقاء بين المؤمنين والكافرين جاء على غير ميعاد ، فإنّ من متعلّقـات الثّقف إتقان التّعامل مع الحـدث ، إنّ الانتصـار معنـاه حسـن إعـداد المؤمنـين للعـدّة وحسن الاستعمال . إنّ اللّقاء بين المؤمنـين والكـافرين أسفر بفضـل الله تعـالى عـن هزيمة الكافرين شرّ الهزيمة وإصعادهم فى الأرض لا يلوون على أحد . وإنّ فـى هـذا الانتصار درسًا للمؤمنين بأن يعدّوا ما استطاعوا من قوّة وبأن يحسنوا استعمال تلـك القوّة . وهذه المعانى المفهومة ضمنًا سوف يفصح بها السّياق . ولا يقـف الأثـر الحميد لإعداد القوّة وحسن استعمالها عند هزيمة الكـافرين الخـائنين الآخرين الّذين خانوا فعلاً والّذين تسوّل لهم نفوسهم الأمّارة بالسّـوء ويزيّـن لهـم الشّيطان الرّجيـم الخيانة . إنّ التّنكيل بالخائنين من الكافرين وجعلهم عظـةً وعـبرةً للآخريـن[٣] يشـرّد مَنْ خلفهم من الّذين يتّصفـون بخيـانتهم ويفرّقهـم ويبدّدهـم[٤] لأنّهـم يعلمـون بـأنّ مصيرهم سيكون مثل مصير الّذين هزمهم المسلمون شرّ هزيمـة إن لم يتوبـوا ويؤمنـوا ويعملـوا صالحًـا . وإنّ التّذكّر بمعنى الاتّعـاظ هـو الهـدف الّـذى لعـلّ الكـافرين يستفيدونه من العقاب على الخيانة .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « ثقف » ٧٩ .
(٢) معجم مقاييس اللّغة : « ثقف » ١ / ٣٨٣ .
(٣) انظر مثلاً مفردات الرّاغب الأصفهانى : « نكل » ٥٠٦ .
(٤) انظر مثلاً تفسير الطّبري ١٠/١٩ .